محمد واضح رشيد الحسني الندوي

تاريخ
الثقافة الإسلامية

دار الرشيد
لكناؤ (الهند)

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ ـــ ٢٠٠٩م

اعتنى به : محمد وثيق الندوي

الكتابة على الكمبيوتر: محمد عثمان خان الندوي

الناشر

دار الرشيد - لكناؤ (الهند)

يطلب من

المجمع الإسلامي العلمي

ص ب ١١٩ - ندوة العلماء - لكناؤ (الهند)

رقم الهاتف : ٠٥٢٢٢٧٤١٥٣٩-

فاكس : ٠٥٢٢٢٧٤٠٨٠٦-

E-mail:info @ airpindia.com

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فإن هذا الكتاب الذي بيدك، يحتوي على محاضرات قيمة، ألقاها الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي على طلاب الصفوف العالية لدار العلوم التابعة لندوة العلماء، حول الثقافة الإسلامية كمادة من المواد الدراسية التي وضعها المسؤولون عن هذه الدار في منهجها الدراسي، وهو موضوع يدرّس باسم الثقافة الغربية في كثير من الجامعات.

من المؤسف أن معظم المدارس الدينية والعصرية في الهند رغم أنها ألحقت بأسمائها كلمة "الإسلامية" تغفل أن الحضارة العربية هي في الواقع حضارة إسلامية، وتحذف من كتب الثقافة عناصر الحضارة الإسلامية الشامخة التي شيدها المسلمون، وتجهل ما شهد العالم من رقي وتقدم بفضل جهود المسلمين في عهد حكمهم، ومن ظهر في أمتنا الإسلامية من النوابغ والعباقرة، وما أتحفوا العالم من الطرف والنوادر في مختلف العلوم والفنون، وما هي مساهمتهم في تغذية العقول، و تهذيب النفوس، وترقية مستوى المعيشة، واختراع أدوات الراحة، واستخدام الوسائل التي تمكنوا من الوصول إليها لإسعاد البشرية، ولعدم معرفتهم

لتاريخهم الزاهر ينشأ المتخرجون منها مصابين بمركب النقص، ويغلبهم الشعور باستعلاء الغرب وسبقه وتفوقه في اهتمامه بجوانب حياة الإنسان المختلفة، فيعتقدون أن كل ما يرونه من تقدم في العلم، وجهد في الصناعة، وتفنن في وسائل الراحة، واختراعات لسدّ حاجات البشر، واهتمام بالعلم، والخدمات الإنسانية، وتطور في بناء الهندسة، ووضع لقوانين الدولة، وعناية بالمكتبات، والرباطات، والأسبلة، والأوقاف، ودور الأيتام وغيرها من الأمور التي تتعلق بحياة الإنسان، ويحتاج إليها الإنسان ليعيش سعيداً ومرتاحاً، لا ينقصه شيء مما يفتقر إليه في كل مرحلة من مراحل حياته، فيعتقدون أن كل ذلك يرجع إلى الغرب ورجاله، ويجهلون الحقيقة أن أهم عناصر الحضارة الغربية الحديثة مستمد من الحضارة الإسلامية، وأن مسيرة الغرب العالمية بدأت من الأندلس ومصر.

فهذا الكتاب الذي بين أيديكم يرفع ذلك الستار الذي أسدله رجال الغرب على الثقافة الإسلامية الرائعة التي أخذوا عنها الكثير، ويكشف عن جهود المسلمين الأقدمين في هذا المجال، ويفتح عيون الشباب المعجبين بالثقافة الأوربية، و يزيل هذا الإعجاب، ويزودهم بمعلومات تملأ صدورهم ثقة وبهجة، وترفع رؤوسهم فخراً واعتزازاً.

فنحن في هذا العصر الذي نرى فيه الغرب منتصراً في كل ميدان، متفوقاً في كل مجال، مخترعاً لكل جديد، وسابقاً إلى كل

خير بسبب دعايتهم وإن كان مدفوعاً إلى ذلك الخير بدافع من الشهرة وكسب المال، وبسط النفوذ واصطياد النفوس، واستغلال الفرص لمصالحه.

ففي هذا العصر نحن في أشد حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي يبرز جوانب عظمتنا، ولمعان ثقافتنا، ويعلن كل فصل من فصوله وصفحة من صفحاته، بل سطر من سطوره، أن ثقافتنا هي أوسع وأشمل، أروع وأجمل، من كل ثقافة عرفها العالم وسيعرفها إلى أن تقوم الساعة، فهي مقتبسة من الكتاب والسنة، مؤسسة على المبادئ الإنسانية النبيلة، وداعية إلى نشر الخير والفضيلة.

إن كل ثقافة عدا الثقافة الإسلامية هي ثقافة محلية أرضية، لأنها تنتمي إلى الأرض والوطن كالثقافة الرومية، والثقافة اليونانية، والثقافة الإيرانية، والثقافة الهندية، والثقافة الصينية، والثقافة الأوربية السائدة في هذا العصر، أما ثقافتنا الإسلامية فهي الثقافة الوحيدة التي تستحق أن تسمى بثقافة عالمية سماوية، لأنها تنتمي إلى الدين السماوي العالمي الذي يجمع بين العقيدة والشريعة والثقافة.

فتسعد دار الرشيد بتدوين هذه المحضرات وطبعها لتعميم الفائدة ونشكر المؤلف الفاضل على سماحه بطبع الكتاب، وبالله التوفيق.

٤/١٢/٢٠٠٩م جعفر مسعود الحسني الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فإن مادة الحضارة العربية مادة مهمة من المواد المقررة في معظم الجامعات العصرية، ولا شك في أن العرب أنشأوا دولة كان لها دور كبير في مصير العالم، وكانت هذه الدولة مصدر حضارة إنسانية عالمية، عاش في ظلها العالم مدة طويلة، واقتبس من حسناتها في مختلف ميادين الحياة، وقد خرج العرب من الجهالة، وحياة الفردية، إلى العلم، والحياة الاجتماعية في مدة قصيرة، وكانوا نقطة التقاء لحضارات العالم، فكانت حضارتهم عصارة لمحاسن الحضارات العالمية الكبرى الفارسية واليونانية والهندية، ولذلك تميز موقفهم في العلم والفن، ومنهج الحياة عن غيرهم، ولكن كان ذلك بفضل الإسلام الذي جمع الأمم المختلفة وتجارب الأمم المختلفة وميزاتها، وصهرها في قالب واحد وهو القالب الإسلامي الذي يقوم على أساس عقيدة التوحيد التي كانت العنصر الرئيسي للوحدة والاجتماعية، واختار أصحاب الكفاءات والصلاحيات من كل

دولة للتعبير عن تصوراتهم، وعلومهم وصناعتهم، اللغة العربية حتى الطب والفلسفة، والفن المعماري، كانت لغة تعبيره العربية فظهرت هذه الحضارة في المظهر العربي، وعرفت بالحضارة العربية، ولكنها في الحقيقة حضارة إسلامية.

يقول هملتن جب:

"إن الإسلام تصور منسق ظهر من أشكال سياسية واجتماعية، ووحدة دينية، وهذا التصوز يحيط بمساحة واسعة للزمان والمكان، و قد برزت خصائصه المختلفة في مناطق مختلفة بقدر احتكاكه بمختلف القوى الاجتماعية والسياسية المحلية".

ويقول ولفرد كانتويل اسمت:

"كان انتصار المسلمين انتصاراً داخلياً لدينهم، فإنهم لم يحققوا النصر في ميدان القتال وحده، ولم يؤثروا على جوانب مختلفة في الحياة فحسب، بل أنهم حققوا النصر في توجيه الحياة بصورة عامة توجيها جديداً، وطبعها بطابع خاص، وهو ما يعرف بالحضارة، وقد ساهمت في تكوين هذه الحضارة الإسلامية عوامل متعددة كالعربية واليونانية والحضارة السامية للشرق الأوسط وإيران الساسانية والعناصر الهندية، ولكن تجلت عبقرية المسلمين في تنسيق هذه العوامل المختلفة وصهرها في بوتقة جديدة".

ويقول:

" كان ذلك هو الإسلام الذي قام بتنمية هذه العوامل

وإكمالها، وهيأ لها قوة للبقاء انه منح كل جانب من جوانب الحياة طابعاً إسلامياً مهما كان أصله وعناصره التركيبية، وهيأ المنهج الإسلامي للحياة والمجتمع وحدة وقوة وكان للقانون الإسلامي دور جوهري في تكوين هذه القوة الموحدة".

يقول العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي وهو يخاطب الأمة العربية:

"إن الإسلام الذي جاء به سيدنا محمد العربي صلى الله عليه وسلم منبع حياتكم، ومن أفقه طلع صبحكم الصادق، وأن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هو مصدر شرفكم وسبب ذكركم، وكل خير جاءكم - بل وكل خير جاء العالم، فإنما هو عن طريقه وعلى يديه، أبى الله أن تتشرفوا إلا بانتسابكم إليه، وتمسككم بأذياله والاضطلاع برسالته، والاستماتة في سبيل دينه، ولا راد لقضاء الله ولا تبديل لكلمات الله، إن العالم العربي بحر بلا ماء كبحر العروض حتى يتخذ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إماماً وقائداً لحياته وجهاده، وينهض برسالة الإسلام كما نهض في العهد الأول، ويخلص العالم المظلوم من براثن مجانين أوربا - الذين يأبون إلا أن يقبروا المدنية، ويقضوا على الإنسانية القضاء الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم - ويوجه العالم من الانهيار إلى الازدهار، ومن الخراب و الدمار والفوضى والاضطراب، إلى التقدم والانتظام، والأمن والسلام، ومن الكفر والطغيان إلى

الطاعة والإيمان، وإنه حق على العالم العربي يسأل عنه عند ربه، فلينظر بماذا يجيب؟"

أسند إليّ تدريس مادة الثقافة العربية وطالعت هذا الموضوع في الكتب المقررة لهذا الموضوع، فوجدت في عرض هذا الموضوع إجحافاً بالنسبة لدور الإسلام في تكوين الثقافة العربية، ودور غير العرب في تنمية و تطوير و إثراء الثقافة العربية، فقد امتد الحكم الإسلامي في القرن الأول إلى مناطق واسعة في إفريقيا، و آسيا، و أوربا، و كان للحكام و العلماء و الدعاة فيها إسهام كبير في توسيع هذه الثقافة، و جعلها جزءاً من الحضارة العالمية الكبرى، فقمت بإبراز إسهامات الأمم الأخرى في إثراء الحضارة العربية، مع الاعتراف بفضل العرب واللغة العربية، وهذه هي محاضرات كنت ألقيتها على الطلاب في المرحلة العالمية، فقمت فيها بالتعريف بحضارة الإسلام وعرض تاريخ موجز لنشأتها ودورها في توجيه الإنسانية، و ما كان للمسلمين من دور في نشر العلم، و الإبداع في الفن، و إنشاء نظام سياسي و اجتماعي متسامح عادل، والتزمت الاختصار و العرض السريع بغرض أن يعرف طلاب المدارس الإسلامية تاريخهم المجيد الذي دام أكثر من ألف سنة، ودورهم في إنقاذ الأمم وقيادتهم.

فإن غلبة الحضارة الغربية المادية اليوم قد طغت، وسحرت النفوس، ويجهل الشباب المسلم روائع حضارة

الإسلام ودورها في بناء الحضارة الغربية.

وقد أضيف إلى المذكرات بعض الفصول ليستفيد بها عامة القراء و خاصة ما يتعلق بالهند و دور حكامها المسلمين و علمائها في نشر الثقافة الإسلامية، ويرجع الفضل في ذلك إلى الأستاذ محمد وثيق الندوي الذي ساعدني في إضافة هذه المواد الجديدة، وترتيب المذكرات، وتوضيحها، وتبويبها، بمساعدة ابني العزيز محمد جعفر مسعود الندوي صاحب "دار الرشيد" التي قامت بطبع هذا الكتاب.

وأشكر فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء على تقديمه القيم لهذا الكتيب الذي رفع قيمته ووزنه، كما أشكر الأستاذ نذر الحفيظ الندوي الأزهري عميد كلية اللغة العربية وآدابها بدار العلوم لندوة العلماء على كلمته الضافية كتقديم لهذا الكتيّب فجزاهما الله خيراً، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المجهود المتواضع طلاب المدارس الإسلامية ويتقبله.

كتبه

٢٨/١٠/١٤٣٠هـ محمد واضح رشيد الحسني الندوي

١٨/١٠/٢٠٠٩م ندوة العلماء، لكناء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم: فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي
الرئيس العام لندوة العلماء، لكناؤ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فإن الثقافة كلمة يعبّر بها عن لياقة مجتمع من المجتمعات في تنسيق حياته، وإضفاء الجودة والروعة على مظاهرها، تدخل فيها جوانب عديدة متنوعة من مناهج السلوك والإظهار، فيدخل فيها الاعتناء العلمي، والاهتمامات الفنية، والالتزامات العملية، وبها تحصل للمجتمع سمات معينة لمظاهر حياته، فيعرف بها المجتمع وينال التقدير والمكانة الحسنة في التاريخ الإنساني.

إن دراسة أحوال أمة من الأمم تفتقر إلى معرفة أحوالها الثقافية لحياتها الاجتماعية والسلوكية حتى تعلم مكانتها اللائقة بها وصورها الاجتماعية من بين الأمم الأخرى، وهي أحوال تدل على سمة هذه الأمة الخاصة، ويكون من الواجب لكل دارس علمي أن يستعرض هذه الأحوال ويدرسها، ويعرف سمتها الاجتماعية الخاصة.

والأمة الإسلامية مرّت من تقدم علمي وفني رائع،

ومعرفة مكانة تقدمها وسمة حياتها السلوكية والاجتماعية مقرونة بمعرفة ثقافتها، وقد ذكرت أطوار هذه الثقافة وأصنافها المختلفة، كتب عديدة ألفها أصحاب الدراسة والبحث و العلم من أبناء الأمة الإسلامية، وهي منتشرة في هذه الكتب، وإن الاطلاع عليها يحتاج إلى مراجعة هذه الكتب وانتقاء المهم من هذه الأصناف، وأما الدارس العام للعلوم والفنون الإسلامية فإنه يرى من الصعوبة أن يراجع هذا التراث العلمي والفني الواسع المنتشر في الكتب، فاقتضى ذلك أن يوضع كتاب في هذا الموضوع، تعرف به المعلومات العلمية والفنية والثقافية والحضارية لهذه الأمة العظيمة.

وكان المنهج الدراسي لدار العلوم لندوة العلماء يشتمل على إلقاء محاضرات، تعرض بها مقتطفات ومختارات هامة من هذا التراث العلمي والفني الإسلامي لهذه الأمة، وكان ذلك مسنداً في الآونة الحالية إلى أخي العزيز الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي، رئيس الشئون التعليمية لندوة العلماء، وعميد كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء سابقاً، وكان حررها في كناشاته، كان يحاضر بها معتمداً عليها أمام طلبة دار العلوم لندوة العلماء، فاقترح عليه أصدقاؤه أن يرتبها في كتاب يستفيد به الطلاب وغيرهم كذلك، ويطلعوا عليها في كتاب واحد، فأعدّ ذلك، فهو يقدمه في هذا التأليف المفيد.

والأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي هو ممن

جمعوا بين الدراسات الإسلامية والدراسات الثقافية المقارنة، فكان كفواً كفاءة كاملة لأداء هذا العمل العظيم، فإنه درس في دار العلوم ندوة العلماء، وأكمل الدراسة الدينية والأدبية فيها، ثم درس الثقافات الأجنبية كذلك، واشتغل بالعمل العلمي والأدبي فيها خلال مدة لا تقل عن عشرين سنة، فأصبحت له معرفة علمية كبيرة في هذا المجال، وقد ألف كتباً عديدة ذات صلة بهذا الموضوع، أرجو أن كتابه هذا يكون أحسن وسيلة للمعرفة الثقافية الإسلامية مع مقارنتها مع الثقافات الأجنبية.

وكتابه هذا يشتمل على ستة فصول، فالفصل الأول يبيّن معنى الثقافة لغة واصطلاحاً، وما يوجد بين الثقافة والدين من الارتباط، وكذلك الفرق بين الثقافة والحضارة، والثقافة الإسلامية وخصائصها البارزة، كما يسلط الضوء على العقلية العربية، وتأثير الثقافات الأجنبية.

والفصل الثاني يذكر قيام الدولة الإسلامية والأسر الحاكمة، صعودها وهبوطها، وأدوارها في خدمة التراث العملي الفني الإسلامي، أمثال بني بويه، والحمدانيين، والسلاجقة، والغزنويين، والزنكي، والأيوبيين، والعثمانيين، والمماليك، والدولة الفاطمية، والحكم الإسلامي في الأندلس.

والفصل الثالث يتحدّث عن الحكم الإسلامي في الهند، ومساهمة أبنائها المسلمين في مختلف مجالات الحياة العلمية والفنية والأدبية والثقافية.

الفصل الرابع يبحث الحركة العلمية التي قادها المسلمون عبر العصور، ويتحدث عن العلوم والفنون الإسلامية كعلم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلوم اللسان العربي، والتاريخ، والجغرافية، والفلسفة، وعلم الكلام، وعلم التصوف، ويلقي هذا الفصل الأضواء على الفرق مثل الأشاعرة، والمعتزلة، والباطنية، وإخوان الصفا.

والفصل الخامس للكتاب يركّز على الفن الإسلامي، ويتحدث عن المدن الإسلامية التي أنشأها الحكام المسلمون في عهودهم، منها البصرة، والكوفة، وبغداد، والقاهرة، وقرطبة، والزهراء، والقيروان، ومراكش، والرباط، ودمشق و الواسط، وسامرا، والفسطاط.

والفصل السادس يبحث حول الجوامع والمدارس والمراكز العلمية والمكتبات الإسلامية والمستشفيات التي أنشأها المسلمون في مختلف أنحاء العالم في عهودهم الزاهرة.

وبهذا أصبح الكتاب جامعاً لأطوار مختلفة للثقافة الإسلامية وفروعها الدينية والعلمية والفنية والحضارية، وإنني أبدى تقديري للأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي على هذا العمل الجليل المفيد.

كتبه

١٤٣٠/٠٩/٢٩هـ — محمد الرابع الحسني الندوي

٢٠٠٩/٠٩/١٩م — الرئيس العام لندوة العلماء، لكناء

تقديم الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد!

فإن العالم الإسلامي قد أصيب بنكبات ونكسات متتالية بعد ما تمزق شمله وخبت جذوة الإيمان في قلوب أبنائه بضعف أقعده عن مسايرة تطورات العصر في إرساء حضارته على مبادئ الإسلام، وأسس شريعته، فتفتحت عينه على العالم الغربي في بداية القرن الثامن عشر، تفتح الطفل إلى أمه أو التلميذ الصغير إلى أستاذه، لا يدع مجالاً لنفسه للتفكير والنقد والاختيار فيتقبل ما يرى ويسمع بقبول حسن، ويجد فيه القدوة الحسنة والمثل الأعلى، وازداد الأمر سوءا حينما نرى عوامل الحياة النفسية التي ساعدت على ذلك، فإن الشعور بالنقص لدى كثير من أبناء الأمة الإسلامية دفعهم من غير روية إلى تذوق كل ما هو غربي في طرافة واستحسان، وحملهم على أن يلبسوا ألبوسه في ثوب المدنية.

كل واحد منا يعرف أسباب هذه النكبات التي واجهها المسلمون في تاريخهم الإسلامي على مدى أربعة عشر قرناً إلا أن وجود العلماء الربانيين والمجددين والمصلحين والمجاهدين في

كل عصر ومصر كان كفيلاً بالقضاء على الفتن الداخلية والهجمات الخارجية .

حيث أن هؤلاء العباقرة كانوا ينفون عن الإسلام تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، فخرج الإسلام من هذه المعارك كلها ظافراً ومنتصراً ، غير أن الغزوات الحضارية والثقافية التي جاءت من الغرب كانت قوة تدميرها ومجالات تأثيرها وسرعة انتشارها وبسط نفوذها ، فاقت كل التصورات ، واتسع الخرق على الراقع ، فلما أفاق المسلمون من سباتهم العميق حاولوا لَمَّ شملهم والنفخ في الرماد التي كانت فيها جمرات الإيمان كامنة ، فقاموا بإنشاء مؤسسات فكرية وتربوية وبناء قلاع حصينة للحفاظ على الدين والحفارة على قافلة الإسلام العقائدية والحضارية والثقافية ، كما ظهرت حركات دعوية وعلمية للمرابطة الدائمة على ثغور الإسلام ، وجبهاته الحاسمة ومجالاته الرئيسية ، فكان التوفيق حليف هذه الحركات و المؤسسات الدعوية والتربوية.

ومن هذه الحركات حركة ندوة العلماء التي أنجبت في مدة قليلة ، علماء ودعاة بارزين ومربين موجهين قاموا بدور مشكور في مجال نشر الثقافة الإسلامية وعرض السيرة النبوية ومحاسن الإسلام وتعاليمه في أسلوب عصري قوي وثوب قشيب ، وكان لكتابات أبناء هذه المؤسسة العلمية والدينية والأدبية والتاريخية والدعوية والتربوية تأثير كبير في إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة

الإسلامية ومكافحة مركب النقص فيهم، فالكتيبة المؤمنة التي قام بإعدادها وتربيتها، الإمام الندوي لمواجهة الغزو الفكري والثقافي وصيانة الأمة الإسلامية من الردة العقائدية والحضارية الوافدة من الغرب، تشمل أساتذة يجمعون بين متانة العقيدة والاقتناع بالإسلام كدين خالد أبدي، ومن الإطلاع الواسع العميق على العلم الحديث، هؤلاء يميزون بين القشر واللباب، والزائف الفج غير الناضج من الآراء والنظريات، وبين المختمر الناضج الحصيف من الآراء والتجارب، الذين لا تغرهم الدعاوي العريضة والطبول الفارغة، بل يعتمدون على حصيلة الاختبارات وعصيرة التفكير، الذين ما زادهم التوسع في الدراسات والتفنن في العلوم والاحتكاك بالحضارة الغربية إلا إيماناً بالحقائق الغيبية والتعاليم الإسلامية، هؤلاء الذين إذا درسوا العلوم العصرية الحديثة والنظم السائدة كونوا في نفوس الشباب ثقة جديدة وإيماناً جديداً بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وخلود الرسالة الإسلامية وعبقرية الشريعة السماوية، من هؤلاء الأساتذة والمربين الأستاذ الأديب الأريب محمد واضح رشيد الحسني الندوي الذي يجمع بين الثقافتين ـ ثقافة الشرق والغرب ـ والذي له دور كبير في إعداد جيل جديد حسب مقتضيات العصر ومتطلبات المجتمع.

كتابات الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي تمتاز بالجمع بين الإيمان القوي الراسخ والعلم العميق الواسع وتجتمع

في شخصيته القدوة الصالحة والدراسة الواسعة، وإنه يتضلع من القديم إلى جانب فهمه لروح العصر الحديث ومشكلات الشباب ونفسيتهم وعقليتهم وطرق حلها.

إنه متصلب في الأصول، متوسط في الفروع، يتورع في دينه من المداهنة، وفي العلوم من الجمود وضيق التفكير، يأخذ من القديم الرسوخ والتبحر في العلم، ومن الجديد الاستطلاع وحب الواقعية.

يراعي في كتاباته دائماً المنهج الإسلامي السليم، ويخرج في تأليفاته عن الإطار التقليدي المرسوم الذي رسمه الغرب للدراسة والتحقيق والتأليف، فأسلوب الأستاذ الندوي أسلوب قرآني جامع بين الإثبات المفصل والنفي المجمل حسب تعبير الإمام ابن تيمية، هذا الأسلوب حاجة كل داعية مسلم، والمطلوب في كل عصر ومصر.

قراءة هذا الكتاب ـ كما هو العهد بصاحبه ـ تمنح الجيل الجديد ومن بيدهم القيادة الفكرية والتربوية والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية، الثقة بصلاحية الإسلام وقدرته، لا على مسايرة العصر وتطوراته، وتحقيق مطالبه، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى وتجديف سفينة الحياة إلى بر السلام والسعادة، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار اللذين تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء.

هذا الكتاب يفتح عيون الشباب المعجبين بالثقافة الغربية

ويملأ صدورهم ثقة وبهجة، فخراً واعتزازاً، ويزيدهم اعتداداً بدينهم، وتمسكاً بعقيدتهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يبرز جوانب عظمة المسلمين ولمعان ثقافتهم ومدى تأثيرها القوى العميق على المجتمع الإنساني كله.

دراسة هذا الكتاب تترك في نفس القارئ انطباعين لا ثالث لهما.

الأول: إن ثقافتنا هي أوسع وأجمل وأشمل وأروع من كل ثقافة عرفها العالم، وإن ثقافتنا سماوية عالية، نزعتها ربانية، وإنها تتناول جوانب الحياة الإنسانية الثلاثة: الجانب العقلي والجانب البدني والجانب الروحي، إلى جانب ذلك أن هذه الثقافة متماسكة الفروع، يشد كل فرع من معارفها أزر الآخر ويتعاون معه لخير الإنسانية، فالعقيدة الدينية أصل للحياة الاجتماعية، ولا يعرف الإسلام ثقافة دينية روحية منفصلة تمام الانفصال عن الثقافة الفكرية أو الثقافة المادية والاجتماعية، بل يستمد الفكر إشعاعه من هدي الدين كما أن الثقافة الإسلامية عميقة الجذور في ثبات أصولها ورسوخ قواعدها، فالإسلام حينما يتناول شؤون الحياة ومطالب الإنسانية يتناول أسسها العامة الثابتة ويترك للأمة أن تقرر ما يتلاءم مع بيئتها.

هذه هي الميزات التي كانت وراء سرعة انتشار الثقافة الإسلامية في أرجاء العالم في مدة منقطعة النظير. نحن في أشد حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي يبرز جوانب عظمة الثقافة

الإسلامية ودورها الرئيسي في بناء الحضارة العالمية وتكوين مجتمع مثالي أفضل، وإن هذه الثقافة هي التي أنجبت للإنسانية نوابغ وعباقرة في مجالات الحياة المختلفة سعدت بهم الإنسانية في رحلتها التي بدأتها من الوحي الأول ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق ٥]. إلى يومنا هذا، ولا تزال هذه الثقافة تحمل صفات ومزايا تؤهلها لقيادة الإنسانية في كل عصر ومصر، ولا تزال خلية الإسلام تعسل وشجرة الإسلام تورق وتثمر إلى يوم القيامة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبرهيم: ٢٤-٢٥].

والانطباع الثاني الذي يجده القارئ وهو إن الثقافة الإسلامية هي سفينة النجاة، وإنها مترادفة للبناء والتعمير، والأمن والأمان، والطمأنينة والرفاهية، والاعتدال والتوازن، والمودة والرحمة، والألفة والانسجام، وبالعكس من ذلك إن الثقافة الغربية تعادل الانهيار والانتحار، والتخريب والتدمير، والاضطراب والتناحر، والفوضى الاجتماعية، والانحطاط الخلقي، والقلق الاقتصادي، والإفلاس الروحي، ليس إلا، فعن البحر حدث ولا حرج. فالهيبة والرعب يزول من ذهن القارئ الذي امتلأ بسبب الدعاية الكاذبة التي قام بها الغرب عن طريق مؤسساتها التعليمية والغزوات الثقافية والوسائل الإعلامية

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

الكتاب يزود الجيل الجديد بمعلومات قيمة عن تاريخه المجيد الذي دام أكثر من ألف سنة ويكشف عن دور الإسلام الرئيسي في إنقاذ الأمم وقيادتها وإرشادها وتوجيهها والمعرفة عن حياتها الاجتماعية والسلوكية ومكانتها اللائقة بها وصورها الاجتماعية من بين الأمم الأخرى.

الكتاب مصدر موثوق ومنبع ثرٌ لمعرفة كفاءة هذه الأمة وسمة حياتها السلوكية والاجتماعية، ومرشد موجه ونموذج جيد لكتابة التاريخ الثقافي والحضاري مع جمال العرض وحسن الترتيب من غير تلوين أو تنميق أو تحبير أو تحسين، زد على ذلك الاحتواء والشمولية والتوسع والتنوع مع الإيجاز والأسلوب الإبداعي الجذاب كما هو العهد بصاحبه.

وأخيراً لا آخراً إن هذا الكتاب بمثابة جندي مرابط على ثغر الإسلام الحساس ومنارة نور في ظلمات البر والبحر.

نذر الحفيظ الندوي الأزهري
عميد كلية اللغة العربية وآدابها
بدار العلوم لندوة العلماء
لكناؤ (الهند)

١٤٣٠/١٢/١٧هـ
٢٠٠٩/١٢/٥م

الفصل الأول

الثقافة الإسلامية

الثقافة :

الثقافة في اللغة الفطنة والذكاء والإمساك والاستواء، ثَقِفَ الرجل ثقفاً وثقافة أي صار حاذقاً خفيفاً فهو ثَقِفٌ، "الثِّقاف" ما تسوى به الرماح، وتثقيفها:تسويتها [1].

التثقيف تقويم المعوج بالثقاف، ويستعار للتأديب والتهذيب [2].

وفي اللسان: ثقف الشيء وثقافة حذقه، ورجلٌ ثَقِفٌ، حاذق فهم.

قال ابن السكيت: رجل ثَقْفٌ إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به، ويقال ثَقِف الشيء هو سرعة التعلم.

وقال ابن دريد: ثُقِفْتُ الشيء حذقته، ثقفته إذا ظفرت به قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [3]، وثَقُفَ الرجل ثقافة إذا صار حاذقاً خفيفاً وثَقِفَ أيضاً صار حاذقاً فطناً.

وفي حديث الهجرة: "وهو غلام لقن ثَقِفٌ" أي ذو فطنة

---

[1] الصحاح
[2] المغرب في ترتيب المعرب المطرزي للخوارزمي
[3] الأنفال: ٥٧

وذكاء.

وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب: "إني حصان فما أكَلَّمُ، وثقاف فما أعَلَّمُ."[1]

ثم أطلقت الكلمة على ما أنتجته الفطنة والذكاء من علم وأدب، وفن وصناعة، واستقامة في السلوك والعادات والمعاملات، وما يتصل بها من نشاط في الحياة، وقد اتصلت الثقافة بالعلم اتصالاً وثيقاً، لأن العلم هو المحرك والدافع الأكبر إلى تنمية الفطنة والذكاء واستغلالها، وتثقيف الذهن و تهذيب السلوك، فلا تأتي الثقافة إلى الوجود إلا بإنشاء المؤسسات العلمية، فإذا قلنا عن شخص بأنه مثقف، ينتقل الذهن إلى كونه متعلماً، وإذا قلنا عن شخص بأنه متعلم ينتقل إلى الذهن أنه مثقف، ولذلك يعرف المتعلمون تعليماً عالياً بالمثقفين، ولاشك في أن العلم يوجد في الإنسان دافعاً إلى البحث عن جديد، وإلى تحسين موقفه ومكانته في الحياة، كما يوجد العلم طبيعة التسامح والتزامل في الإنسان، ويدعوه إلى أن يحترم نفسه، ويكرم غيره، والعلم هو الذي يخرج الإنسان من الانعزال فيحدث فيه الاتجاه إلى التبادل بروح الأخذ والعطاء، ويحمله على تحسين موقفه ورفع مستواه فكرياً ومادياً، ولذلك يعتبر العلم وسيلة لتكوين المجتمع، ويمكن أن نقول أن الثقافة ثمرة العلم، والعلم مصدر الثقافة.

---

[1] اللسان، مادة ثقف، المجلد الأول، ص: ٦٨٤ طبع دار الحديث القاهرة ٢٠٠٣م

والثقافة عند أهل الاختصاص، هو العلم الذي تتوارثه الأجيال، وتسير به في شؤون الحياة، تدخل فيه اللغة واللهجة، ومنهج البناء، وعادات الأكل والشرب، وطرق تحضير المآكل، والمشارب، وإعداد الملابس، والأمثال والحكايات الشعبية، وتصور الدنيا، وموقف أهلها عن الحياة، فهي القرائح وصنائع اليد وطرق المعيشة، وهي التي تتميز فيها أمة عن أمة أخرى، وترتبط الثقافة بالتاريخ والوطن، والعقائد، والطبائع البشرية للمجموعة البشرية التي تنتمي إليها.

الثقافة والدين

الدين هو أهم عامل من عوامل تكوين الثقافة وتطورها، لأن العقيدة الدينية تقوم بتوحيد مختلف طبقات الشعب، وان اختلفت لغة التعبير، واختلفت الميول والعادات، واختلفت الانتماءات إلى المناهج الاقتصادية والسياسية والقومية، والمسلمون مثلا لهم ثقافة تختلف في كثير من الأمور عن ثقافة غير المسلمين، ويتحدون في أمور كثيرة وإن اختلفت الأوطان وظروف المعيشة، وقد شهد العالم مجتمعاً ثقافياً يشترك فيه التركي، والإيراني، والهندي، والرومي، والحبشي، والعربي، ويؤدي هذا الاشتراك الذي يقوم على أساس التصور الديني إلى الاشتراك في الذوق ومنهج العمل، فيؤثر على الميول الاجتماعية والخلقية، والمأكل والمشرب، والبناء واللباس، فتظهر الصبغة الإسلامية على الملابس والمباني، وأدوات المنزل،

وطرق الأكل، والشرب، والبحث العلمي، وباتجاه الموقف إزاء الحياة في حياة المسلمين في أي وطن كانوا، فالدين إذاً هو القوة الرئيسية في خلق ثقافة مشتركة بين الشعوب المتعددة، والإسلام أقوى الأديان تأثيراً في النفوس باتباع منهج خاص للحياة.

الثقافة والحضارة

يميز العلماء بين الثقافة والحضارة، ولكن هذا التمييز كمي وليس بكيفي، والحضارة والمدنية والتمدن تعبيرات تعبر عن النشاط الإنشائي والبنائي لأي أمة نتيجة لتقدمها في العلم، ووسائل الرقي، وهي مرتبطة بنظام حكم، والبحث في تمدن أمة يتناول النظر فيما بلغت إليه هذه الأمة من سعة الملك وتوفر الثروة والرخاء، وما رافقها من أسباب الحضارة، وتشتمل الثقافة على العلم والأدب والفن، وما تتصف به تلك الأمة من عادات وآداب اجتماعية ويأتي هذا الموضوع في ضمن البحث عن حضارة تلك الأمة، ويشترط بعض العلماء للحضارة أن يكون لها نظام حكم بقانون مكتوب ينفذ على حياة الخاصة والعامة.

الثقافة الإسلامية

إن الثقافة الإسلامية عربية المنشأ، وهي تتسم بكثير من المزايا والخصائص العربية التي احتفظ بها المسلمون، وقد نشأت الثقافة الإسلامية واختمرت في البيئة العربية قبل أن تصبح ثقافة عالمية، تشترك في تطويرها قرائح أمم مختلفة وصنائع رجال من

خارج الجزيرة العربية، وتمثل الثقافة الإسلامية العالمية كثيراً من العادات العربية، والذوق العربي، والعلوم العربية، لأن بناة الثقافة الإسلامية كانوا من العرب، وكان للغتهم وثقافتهم وآدابهم وشمائلهم نصيب أكبر في الثقافة الإسلامية العالمية.

فتتكون الثقافة الإسلامية من العناصر الرئيسية الآتية:

العنصر الأول: هو عنصر التعاليم الإسلامية، من العقيدة إلى المعاملات والسلوك.

العنصر الثاني: خصائص وشمائل العرب التي أبقاها الإسلام.

العنصر الثالث: عناصر الثقافة الفارسية واليونانية والهندية.

لابد لكل ثقافة أن تخضع للحياة الطبيعية والاجتماعية والقدرات العقلية، لذلك يجب أن نستعرض ما كان يتميز به العرب من غيرهم من عقائد وعادات وميول وتصور للحياة، فيما كانت لهم من علوم، ثم ندرس عوامل التحول الفكري والاجتماعي الذي نشأ بفضل الإسلام، والعناصر التي شاركت في نموها وانتشارها.

العقلية العربية

لكل أمة عقلية ونفسية خاصة تظهر في تعامل أفرادها وتميزها عن الأمم الأخرى، وكانت للعرب عقلية خاصة ويتميزون فيها عن الأمم الأخرى، كانت حياتهم تخضع لهذه العقلية، فقد بحث العلماء العقلية العربية، وأصدروا أحكامهم

في ضوء دراستهم، فقد قام بعض الباحثين في دراستهم بتقسيم العرب من الناحية الاجتماعية والميول الفكرية إلى عرب البادية، وعرب الحاضرة، ثم إلى عرب الجاهلية، وعرب الإسلام، ووصفوا العقلية العربية في ضوء هذا التقسيم إلى عقلية بدوية، وعقلية حضرية، وعقلية جاهلية، وعقلية إسلامية، ومن الصفات التي يعرف فيها العرب بصورة عامة، والتي كانت توجد فيهم بأقدار مختلفة حسب الظروف في المعيشة، والفخر، والنخوة الزائدة، والخشونة في المعيشة، والإباء.

وقد كان ابن خلدون متشدداً في نظرته إلى العرب فوصفهم بقوله "إن العرب متحوش ونهاب وسلاب إذا أخضع مملكة أسرع إليها الخراب، صعب الانقياد إلى الرئيس، لا يجيد صنعة، ولا يحسن علماً، ولا عنده استعداد للإجادة فيهما، مع ذلك هو سليم الطبع مستعد للخير شجاع"[1].

وقال الآلوسي: "العرب كانوا أتم الناس عقولاً وأحلاماً وأوفرهم أفهاماً"[2].

وقال ابن رشيق في العمدة: "العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم"[3].

---

[1] فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين، ص: ٣٥ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.

[2] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١٤٤/١/ محمود شكري الآلوسي البغدادي.

[3] العمدة لابن رشيق.

وقال أحد المستشرقين أوليري: العربي مادي ضيق الخيال، جامح العواطف شديد الشعور بكرامته وحريته، كريم مخلص لتقاليد قبيلته"[1].

ويقول أحمد أمين في فجر الإسلام: "العرب عصبي المزاج، سريع الغضب، يهيج للشيء التافه، ثم لا يقف في هياجه عند حد، وهو أشد هياجاً إذا جرحت كرامته، أو انتهكت حرمة قبيلته، فإذا احتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه، لكنه ذكي يظهر ذكاؤه في لغته وأدبه يتميز بالتفنن بالقول والابتكار للمعنى، وإن شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله، وخياله محدود غير متنوع، عالمه محدود، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يظهر كل مظهر، والعربي يحب المساواة ولكنها مساواة في حدود القبيلة، يشعر في أعماق نفسه بأنه دم يمتاز، ولا يؤمن بعظمة الفرس والروم مع ما له من جدب وفقر وبداوة، وما لهم من خصب وغنى وحضارة"[2].

كانت حياة العرب الاجتماعية تختلف باختلاف المناطق التي كانوا يعيشون فيها وتتنوع أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم، وكانت بعض القبائل تنتقل من مكان إلى مكان، وتنضم إلى قبائل أخرى، وتقبس منها وتفيدها، ولم يقتصر هذا الاختلاف على العادات والميول، وإنما كان يلاحظ كذلك باللهجات التي

---

[1] Arabia before Mohammad نقلاً من "فجر الإسلام" د/ أحمد أمين، ص: ٣٥.
[2] نفس المصدر: ٣٧.

كانت شائعة في مختلف المناطق، ومعاني الألفاظ، فكان لفظ واحد يستعمل في معاني مختلفة، وفي مناطق مختلفة، وألفاظ مختلفة تستعمل بمعنى واحد، فمثلاً كلمة البيت كانت تستعمل في شمال جزيرة العرب بمعنى الدار، وتستعمل في الجنوب بمعنى القصر، وكلمة "ذو" تستعمل في بعض المناطق بمعنى صاحب، وفي مناطق أخرى بمعنى الذي، كما كانت تستعمل في قبيلة طي، وكانت هذه الفروق في اللهجة واللغة والأخلاق، توجد إنزواء هذه القبائل وانطواءها على النفس، وكانت بعض القبائل معروفة بالكرم والسماحة، وقبائل أخرى تعيش بالإغارة، والنهب والسلب، كانت هذه الفروق بين الحاضرة والبادية من حيث المجموع، وبين القبائل البادية والقبائل الحاضرة أيضاً، ولكن رغم هذا الاختلاف كانت السمات الغالبة للعرب، التي كانت توجد بأقدار مختلفة، هي حب الحرية، والمساواة، والصبر على المكاره، والواقعية، وعدم التفلسف، وبعد الخيال، والسلامة والجدية.

كانت هذه الفردية الأنانية وعصبية القبيلة تمنعهم من تشكيل مجتمع أوسع، فلما جاء الإسلام أزال هذه الكيانات المنفصلة، وجعل منها كياناً إسلامياً واحداً، وحرم النزعات العصبيات الفاصلة، وقام بتحويل طاقات العرب المتشتة إلى قوة موحدة تصرف لغرض سام، وأخرجهم من الفردية إلى الحياة الاجتماعية، وغير نظرتهم إلى الإنسان والحياة وأحدث فيه

انقلاباً فكرياً واجتماعياً، وبفضل الإسلام ظهر العرب كأمة واحدة، تحمل طاقاتها ومواهبها، وتنطلق من انطوائها حاملة الدعوة الإسلامية إلى العالم الخارجي.

تأثير الثقافات الأجنبية

تأثر المسلمون العرب نتيجة للفتوح بالأمم الأخرى بشتى الثقافات والحضارات التي كانت قد ازدهرت حول جزيرة العرب، منها الثقافة اليونانية والثقافة الفارسية والثقافة الهندية، وكان للثقافتين الفارسية واليونانية تأثير غير مباشر عن طريق الحكومتين العربيتين، اللتين كانتا في الحيرة وغسان، كان يتوجه إلى ملوك غسان الذين كانوا تحت نفوذ رومي، وملوك الحيرة الذين كانوا تحت نفوذ فارسي، شعراء العرب وخطباؤهم وحكماؤهم، وكان لهذا الاتصال تأثير في بعض المناطق كما ظهر أثره في شعر العرب الجاهلي، وانتقلت تعبيرات فارسية ورومية، وطقوس وعادات إلى اللغة العربية، ومعيشة العرب، وكان هذا التأثير محدوداً، فلما توسع نطاق التعامل والاختلاط مع هذه العناصر اتسع نطاق التأثير الثقافي على المجتمع العربي، وانتقلت فلسفات ونظريات عن الحياة إلى المجتمع العربي.

بدأ الاتصال بالهند في العصر الجاهلي، وإن كان محدوداً على الروابط التجارية، فكانت تنتقل مصنوعات هندية إلى الجزيرة، وفي مقدمتها الحديد والتوابل والبخور والعطور، فتكثر في اللغة العربية ألفاظ هندية في هذا المجال المحدود، واتسع التبادل

الثقافي بوصول المسلمين إلى الهند في العصر الأموي، واتسع نطاق التبادل العلمي والفني بانتقال العلماء والأطباء من الهند إلى البلاد العربية، ونقل بعض الكتب الهندية إلى العربية، ودرس العلماء أفكار فلاسفة الهند.

وكان لجميع هذه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية مساهمة في نشأة الثقافة الإسلامية، وبفضل هذا الانتفاع بالثقافات المختلفة وجدت في الثقافة الإسلامية حياة وقوة دافعة وتوازن.

نشأت الثقافة الإسلامية كثقافة عالمية تحمل خيرات أمم أخرى، وارتفعت عن الإقليمية والطائفية والجمود الفكري، وانتشرت في العالم بسرعة فائقة ونقلتها الأمم المختلفة كأطيب ثقافة معاصرة.

يقول "غوستاف لبون "المستشرق: إن ما حققه المسلمون في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة أخرى، أنهم أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت في العالم، ولا يزال الناس يخضعون له، وأنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، ولم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على أنفسهم، وقد كان لهم نصيب أوفر في الشرق والغرب، وإن الشرق والغرب لمدينان لهم في تمدنهما"[1].

كان من السمات البارزة للحضارة الإسلامية أنها كانت دائمة متحركة وشاملة، منبعها واحد، وفروعها كثيرة، تحمل

---

[1] حضارة العرب/ الدكتور غوستاف لوبون .

من خصائص الأقاليم المختلفة مما طاب وجد، ولم يشهد التاريخ انتشار ثقافة في مدة قصيرة كانتشار الثقافة الإسلامية التي طبقت الآفاق شرقاً وغرباً، وامتزجت فيها العقلية الآرية، والشهامة السامية، وصفاء الذهن العربي وانطلاقه، وحكمة الهندي والفارسي وتأمله، فكانت امتزاجاً للإيمان والعقل والعلم والفن والصناعة، فلم تسيطر على الثقافة الإسلامية، العسكرية أو العقلية المحضة أو الفنية المجردة.

بل امتزجت هذه القدرات والمواهب في إطار التصور الإسلامي الإيماني، وخلت الثقافة الإسلامية من العنصرية والطائفية والمادية الجامحة، وقامت بفضلها حركة علمية، تبحث عن المعارف من سائر المصادر، فلم تكن عقبة في سبيل الثقافات الأخرى، وإنما كانت امتداداً للجهود التي بذلت في مختلف العصور والأقاليم، وإجادة للمجهودات السابقة وإبداعاً وابتكاراً للمجالات الجديدة للعمل.

كان اهتمام الإسلام الأول بتصحيح الفكر الإنساني وتجويد ثماره، واتخذ الإسلام موقفاً ثورياً إزاء العلم، وقام بتعميم فوائده، حينما كان العلم احتكاراً في أوساط معينة، ولهذا الموقف الذي اتخذه الإسلام وصل الموالي إلى مرتبة الأستاذية في فترة قصيرة من التاريخ، ووصل عدد منهم إلى مناصب عالية في مجالات علمية، وكان فيهم معلمون ومؤدبون لأولاد الحكام، وكان فيهم كتاب دواوين، وقام الإسلام بتهيئة

الفرص المتكافئة لتنمية الصلاحيات وإزالة الفوارق والعقبات، ووجد به سباق إلى التزود بالعلم والمعرفة، وإتقان الفن والبراعة فيه، ونشأ بذلك مجتمع متكافئ متعاضد يشد بعضه بعضاً.

خلاصة البحث

نشأت الثقافة الإسلامية في البيئة العربية، فكانت الخصائص العربية الصالحة بحذف العناصر الجاهلية السمة الغالبة لها، فسادت هذه الخصائص التي يتميز بها العرب عن غيرهم كالحق، والعدل، والكرامة، والمروءة، والبطولة، والمساواة، والنجدة، وهي خصائص مشتركة، كان العرب يتباهون بها ويمتلئ أدبهم في شعر وحكمة ومثل ووصية، جاء الإسلام فازدادت هذه الخصائص نمواً واستواءا، ونفي عن حياة العرب ما كان يوجد فيهم في العصر الجاهلي من انحراف خلقي وعصبيات وعادات قبيحة، وانتظمت القيم العربية والموروثة في إطار القيم الإسلامية التي احتوتها، وسمت بها من الأفق المحلي إلى آفاق أرحب وأوسع، فأصبح لسان العرب يسير مع ركب الدعاة، فأصبح لسان الأمم التي قبلت الإسلام بالاحتفاظ بلغاتها المحلية، وانتقلت القيم الراشدة والأنماط السلوكية السامية والإبداعات في إطار الحق والعدل، واقتبست هذه الثقافة العربية الإسلامية من ثقافات جيرانها في الشرق والغرب ما كان حسناً يمشي مع قيم الحق والعدل التي جاء بها الإسلام وتغض الطرف عن نقائصها وسلبياتها.

كان القرآن الكريم والسنة النبوية وحياة الصحابة الذين نشأوا في التربية النبوية، نبراساً وقالباً للثقافة الإسلامية، ثم نشأت حول هذين المصدرين علوم ومعارف، وظهرت إبداعات في عالم الشعر والفنون البنائية والعملية المعمارية، وقامت نظم حكم تضع المصادر الأولى وخصائص العصر الأول موضع الالتزام بالإضافة إلى الاستفادة من المصادر الأخرى.

خصائص الثقافة الإسلامية

تتميز الثقافة الإسلامية التي تستمد أصولها من التعاليم الإسلامية المقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية وحياة الجيل الأول من المسلمين الذي نشأ في التربية النبوية وما أضافه المسلمون من الأمم الأخرى بالخصائص الآتية:

١- الثقافة الإسلامية: تتميز بالأخوة بين المسلمين باختلاف ألوانهم وديارهم وألسنتهم.

٢- الثقافة الإسلامية: تسعى إلى تحقيق صالح البدن، وتغذية الروح، وتجمع بين خير الدنيا والآخرة.

٣- الثقافة الإسلامية: ترعى حقوق الفرد والجماعة، ولا تطغى حقوق الفرد فيها على حقوق الجماعة ولا العكس.

٤- الثقافة الإسلامية: ثقافة إنسانية لا تتعصب، وتحترم الأديان والعقائد الأخرى، وتكفل حقوق أتباعها فيعيش في ظل المجتمع متبعو الثقافات الأخرى باحترام.

٥- الثقافة الإسلامية كالإسلام ثقافة الاعتدال

والتوسط، وتؤكد على التمسك بالفضائل، والابتعاد عن الدنايا، والمحافظة على العرض والشرف وكرامة الفرد، وتسد منافذ التصرفات الشهوانية، وتعتبر الأصول الأخلاقية ثابتة دائمة باختلاف البيئات والأزمنة.

٦- الثقافة الإسلامية: تدعو إلى وحدة الجنس البشري وتنبذ الانفصام والتفرق على أساس اللون أو الجنس، وهي ثقافة تتوسع وتمتد، ولاتضيق ولا تنكمش ولا تؤمن بتفوق جنس أو عنصر على الآخر.

٧- الثقافة الإسلامية: تدعو إلى التوسع في المعرفة والعلم، والتفكير والتدبر في خلق الله وآياته، وتعتبر الثقافة الإسلامية السعي إلى تحصيل العلم، وتعمير الأرض، وخدمة الإنسان عبادة من أفضل العبادات، وتجعل الراعي والحاكم مسئولاً عن رعيته، وتعين حقوقاً للرعية للطاعة والانقياد وعدم التشرذم والافتئات، وبفضل هذا الموقف الحر إزاء العلم والتعميم فيه، نشأت حركة علمية في العصر الأول تركت تراثاً غنيا في جميع مجالات العلم، وشاركت في هذه الحركة العلمية عناصر مختلفة بمساواة، وأقام المسلمون نظام حكم عظيم امتد من الشرق إلى الغرب، واشتركت فيه عناصر عالمية مختلفة فنشأت حضارة عالمية دامت قروناً، وغطت أرجاء واسعة من العالم، فكانت هذه الحضارة منطلقاً للحضارة الأوربية المعاصرة، التي اقتبست من المسلمين في العلم والسياسة والاجتماع.

الفصل الثاني

قيام الدولة الإسلامية والمراكز الثقافية

في أقل من خمسين سنة خرج المسلمون العرب من الجزيرة العربية، وفتحوا مناطق شاسعة في الشرق والغرب، فالتقى المسلمون بالأمم الأخرى، وسرعان ما سقطت معظم المناطق الكبرى في بلاد الفرس والروم، وانضم العراق والشام ومصر إلى الدولة الإسلامية، ثم فتح المسلمون الأندلس، وبعض أجزاء الهند، وبدأ المسلمون يشعرون بضرورة إنشاء مدن جديدة، ومن المدن الإسلامية الأولى التي صارت فيما بعد مراكز العلم والثقافة: البصرة، والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر، وكان ذلك في عهد الخلافة الراشدة، وكانت هذه المدن نشأت بتخطيط يتطابق مع مقتضيات الحياة الكاملة كالتعليم، والتربية، والتجارة، والحاجات الدفاعية.

وفي العهد الأموي انتقلت العاصمة إلى دمشق، وكانت دمشق مركزاً ثقافياً وتجارياً، ملتقى الشرق والغرب، وانطلق المسلمون من هذه العاصمة، وفتحوا مناطق واسعة في الهند، ووصلوا إلى وسط آسيا، وتقدموا نحو الصين، وفي المغرب فتحوا عدة أماكن في شمال إفريقية، وأسسوا مدينة القيروان، أسسها عقبة بن نافع بتونس في العام الخمسين للهجرة، وأنشئت

مدينة واسط في العراق وهما أرقى حضارة وتنسيقاً من البصرة والكوفة، وفتح المسلمون مدينة سمرقند في هذه الفترة، وكانت هذه المدن مراكز العلم والفن في التاريخ الإسلامي الطويل.

كانت الحرفة والصناعة غريبة على العرب، ولما فتحوا بلاد الفرس والروم، انتقلت إليهم المهارات الفنية والصناعية، كصناعة الخزف التي كانت راقية في العراق، وصناعة الزجاج التي كانت شائعة في الشام والإسكندرية، وصناعة النسيج التي بلغت درجة عظيمة من الإتقان في مصر، وتعرف المسلمون على المعادن والفلزات والمجوهرات بدخولهم في السند، وأثمرت هذه الانكشافات في تنمية البراعة الفنية والمهارات الصناعية والحرفية.

كانت طبيعة المسلمين في العصر الأول طبيعة الاستثمار والتنمية، وكانوا لا يقفون عند حد، بل كانت طبائعهم تميل إلى تطور وتحسين ما وصل إليهم من العلم والفن وتطبيق ما وصل إليهم من نظرية أو مظهر أو فلسفة.

وإن هذه الطبيعة للنقل والتطبيق نقلت المسلمين إلى دور الأستاذية في فترة قصيرة، وكانوا يرتقون بما وصل إليهم من معرفة إلى مدارج عليا.

في عهد عبد الملك انتقلت الدواوين إلى العربية واستغنى المسلمون عن النقود الرومية والفارسية، وبدأ استعمال النقود الإسلامية، وتم تنظيم الإدارة والجيش والمواصلات تنظيماً جديداً، وضعت القاعدة العلمية بنقل الكتب إلى اللغة العربية،

وقد تم نقل عدة كتب فلسفة وآداب، ونقل الحكم من الفارسية واليونانية إلى اللغة العربية، وكان من أعلام الترجمة في أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي عبد الله بن المقفع.

وفي عام ١٣٢هـ قامت الدولة العباسية، وانتقلت الحكومة إلى العراق، وأسست مدينة بغداد، وصارت عاصمة جديدة للمملكة الإسلامية، وفاقت بغداد سائر المدن في التخطيط وروعة الفن، وجه العباسيون عنايتهم إلى نشر العلم، ونقل الكتب العلمية من اللغات الأخرى، فقاموا بتنشيط التعليم.

كان عصر المأمون العصر الذهبي في انتشار العلوم والفنون وازدهار المدنية، وبدأ في عهده الإرصاد الجوي، وبذلت محاولات في البحث عن الطبيعة، ومعرفة مقدار محيط الكرة الأرضية، وأنشئت مراكز للبحث في الجو في الكوفة، ونقلت كتب يونانية إلى اللغة العربية.

في عهد المعتصم أسست مدينة "سرمن رأى" وانتقلت العاصمة إليها، وفتحت عمورية البلدة الرومية المقدسة، كان فتح عمورية حادثاً تاريخياً عظيماً وانتصاراً إسلامياً شامخاً، تفتقت له قرائح الشعراء ونوهوا بهذا النصر العظيم في شعرهم، وأصيبت أوربة بضربة قاسية بهذا الفتح المبين للمسلمين.

برزت عناصر جديدة في عهد العباسيين كانت لهم مشاركة في الحكم والعلم، وقد انقسمت الخلافة العباسية بعد وفاة المعتصم، وازداد نفوذ الأتراك، وتغلبت العناصر في بعض

أجزاء الدولة العباسية على الحكم، فكان الحكم الحقيقي في بغداد بأيدي الأتراك، وفي خراسان في أيدي طاهر بن عبيد، ثم تغلب الصفاريون، وقامت في الأندلس حكومة مستقلة بوصول عبد الرحمن الداخل في عام ١٣٩هـ، وحكم الأدارسة في مراكش، والأدارسة والأغالبة في تونس.

واجهت الدولة العباسية ثورات في المنتصف الأخير من القرن الثالث، خرج الزنوج على البصرة ونهبوها، ثم ظهرت فتنة القرامطة،كان رئيسهم بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهران الجنابي وبعد قتله تولى أبو الطاهر سليمان الجنابي وهو الذي تولى كبر الحملة على الحجاج إلى بيت الله الحرام، ونهب قوافلهم، وقلع الحجر الأسود في عام ٣١٧هـ.

بنوبويه

واستولى معز الدولة ابن بويه على بغداد(٣٣٤-٣٥٦هـ)، واستولى على الخليفة العباسي في عام ٣٣٤هـ،[1] وكان للبويهيين كركن الدولة وعضد الدولة دور كبير في استقدام كبار الكتاب والأدباء والشعراء كابن العميد، والصاحب بن العباد، والوزير المهلبي، والأصفهاني، وبديع الزمان الهمذاني، والصابي، والخوارزمي، وازدهرت الآداب والفنون والترجمة في عصرهم، وفي آخر عصرهم نشأت فتن السنة والشيعة وحدثت اضطرابات شديدة، وكان البويهيون من الديالمة.

---

[1] تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي: د/ حسن إبراهيم حسن ٣/٥٠

الدولة الفاطمية

وظهرت دولة الفاطميين بتونس، وكان أول حكامهم المهدي أبومحمد عبيد الله، تغلبوا على بني الأغلب أولاً في إفريقية، ثم تغلبوا على الإخشيدية في مصر في عام ٣٥٨هـ، بعد أن استولى جوهر الصقلي على مصر، وأسس مدينة القاهرة، ثم أسس جامع الأزهر، فقامت في مصر دولة الفاطميين، وكان الفاطميون من غلاة الشيعة، وكانوا مهتمين بنشر المذهب الشيعي، ومن أجل ذلك أسس الفاطميون مكتبات عظيمة، وشجعوا العلماء والأدباء. وانتهت هذه الدولة بتولي الأيوبيين الحكم في عام ٥٦٨هـ.

الحمدانيون

وفي دمشق قامت دولة الحمدانيين واستولى سيف الدولة ابن حمدان على حلب وحمص عام ٣٣٠هـ، وقضى معظم أيامه في مجاربة الروم، وكان أديباً صاحب ذوق شعري، وشجع العلماء والأدباء، ورجال الفن، ونشط حركة العلم والأدب، واتصل ببلاطه أيضاً كبار الأدباء والشعراء والعلماء، كان منهم المتنبي.

الغزنويون

في عام ٣٨٩ هـ قامت الدولة الغزنوية في ما وراء النهر، وقد دخل محمود الغزنوي الهند عدة مرات، وفتح مناطق شاسعة، بقيت الحكومة في أعقابه مدة من الزمن، ونبغ كبار الفلاسفة وعلماء الفلك كالبيروني.

السلاجقة

وفي عام ٤٣٣هـ ظهر عنصر جديد وهو عنصر السلاجقة ودخل السلاجقة وهم من أصل تركي وقضوا على حكم بني بويه لأنهم كانوا يستبدون بأهل السنة، وفي عهد السلاجقة في عام ٤٨٥هـ واجهت الخلافة العباسية فتناً كثيرة، وغلب الإفرنج واستولوا على عدة مدن إسلامية وأخيراً استولوا على القدس في ٤٩٢هـ.

الزنكي

وفي القرن السادس ظهر عنصر آخر كان له إسهام في مواجهة الغزوات الصليبية ووقاية المسلمين من الحملات المتوالية وهذا العنصر كان من حربيين ينتمون إلى أسرة الزنكي. قامت دول في دمشق والموصل وقامت دولة عماد الدين الزنكي في العراق، وكان من كبار القواد الحربيين، أظهر براعته الحربية في مواجهة الصليبيين، وتولى محمود بن عماد الدين الزنكي الحكم في عام ٥٢١هـ، وحارب الصليبيين وأخرجهم من بلاد الشام في عام ٥٣٢هـ (١١٣٧م) وانقسم الملك بعد وفاة محمود بن عماد الدين الزنكي إلى ولديه غازي الدين ونور الدين الزنكي، الذي حارب الصليبيين، وبعد موته في عام ٥٦٩هـ تولى صلاح الدين الحكم في الشام والجزيرة ومصر، وكان الزنكي هو الذي أرسل أحد قواده أسد الدين شيركوه إلى مصر، بناء على استنجاد شاور وزير الخليفة الفاطمي، وبعد أن هزم شيركوه أعداءه تولى

الوزارة بنفسه، وبعد وفاته تولى يوسف صلاح الدين بن نجم الدين الأيوبي فقامت الدولة الأيوبية في مصر.

الأيوبيون

تولى صلاح الدين بن أيوب الحكم في مصر بعد موت العاضد الفاطمي في عام ٥٦٧هـ فقضى على الحكم الفاطمي، وأعد لمواجهة الصليبيين فانتصر عليهم في حطين عام ٥٨٣هـ وفتح القدس، وتوفي عام ٥٨٩هـ، وانقسم ملكه في أولاده.

سقوط الدولة العباسية ببغداد

في رمضان ٥٣٢هـ (١١٣٨م) قتل الخليفة الراشد بالله ابن المسترشد، وكثرت الفتن بمحاربة بعضهم بعضاً، وبعد وفاته في عام ٥٥٥هـ بويع ابنه المقتفي وتفرق ملك السلجوقيين، ولقب بالمستنجد بالله، وفي عهده علا شأن آل زنكي الذين استخلصوا أغلب البلاد التي ملكها الإفرنج، وأتى صلاح الدين الأيوبي مصر، وشغل حكام مصر والشام بالحروب مع الصليبيين، بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي انقسم ملكه، وعمت الحروب بين أولاده، وانتهز الصليبيون هذا الانقسام، فاستولوا على أكثر المناطق التي كان السلطان صلاح الدين استقلها من الإفرنج وفي هذه الأثناء تقدم التتر في بلاد الإسلام، وامتلكوا جميع بلاد فارس، ووصلت طلائعهم إلى العراق، وفي ٦٤٠هـ توفي المستنصر بالله، وبويع ابنه أبو أحمد عبد الله الملقب بالمستعصم بالله، وفي خلافته انتصر الصالح أيوب على الإفرنج بقرب غزة سنة ٦٤٢هـ

واستخلص مدينة القدس التي كان سلمه الملك الكامل سنة ٦٢٦هـ وتحول الإفرنج إلى مصر واحتلوا دمياط عام ٦٤٨هـ وانتصر المسلمون بقرب المنصورة على الإفرنج وأخذوا ملك فرنسا أسيراً.

توفي الملك الصالح الأيوبي أثناء القتال، فتولى ولده توران شاه الحكم، وبعد قتل توران شاه تولت شجرة الدر الحكم، وفي عهدها عاد ملك فرنسا الأسير إلى فرنسا، وانتهت الحروب الصليبية، وبقي بيت المقدس في يد المسلمين، ثم عزلت شجرة الدر، وتولى مكانها المعز أيبك التركماني مملوك زوجها السلطان الصالح وهو أول المماليك البرية، وفي هذه الأثناء تقدم التتر نحو بغداد تحت إمرة هلاكو جنكيز خان ودخلوا في محرم سنة ٦٥٦هـ، قتلوا الخليفة المستعصم وكل من قبضوا عليه من بني العباس والأمراء والعلماء، وكان دخولهم بدسيسة الوزير العلقمي وانتهى بذلك عهد الحكم العباسي.

كان انتصار التتر على المسلمين كارثة كبرى في تاريخ الإسلام سياسياً وثقافياً، فقد دمرت بغداد، وأحرقت المكتبات، وألقيت كتبها في دجلة والفرات، فاسود ماؤها، بمداد الكتب، واحمر بدماء الجثث التي ألقيت فيها، وسالت دماء، ونفيت الممتلكات، وانتهكت أعراض النساء، واستولى المسيحيون الذين أيدوا التتر، فشربت الخمور في المساجد، واستولى رعب التتر على النفوس، فشاع القول عنهم: "إذا قيل لك انهزم التتر فلا تصدق".

وفي نشوة هذا الانتصار تقدم التتر إلى الشام فتصدى لهم

المماليك الذين قيضهم الله لأخذ الأمر الجسيم فوقفوا هذا السيل الجارف.

المماليك

قبل سقوط بغداد بأيدي التتر برز المماليك على الخريطة الإسلامية، وقد كان الملك الصالح الأيوبي قد اتخذ حرساً من عبيد الأتراك، وأسكنهم في الروضة على شاطئ البحر، وعرف هؤلاء فيما بعد بالمماليك البحرية، تولى الحكم المعز أيبك التركماني مملوك السلطان الصالح، وزوج شجرة الدر في عام ٦٤٨هـ وبعد قتله تولى نور الدين علي ابنه، ثم عزل في عام ٦٥٧هـ عندما زحف التتر إلى الشام وهددوا مصر فتولى الملك المظفر سيف الدين قطز المعزي وهو مملوك المعز أيبك.

تولى بعده الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وإليه يرجع الفضل في إجلاء المغول عسكرياً في عين جالوت في عام ٦٥٨هـ وفي عهده قامت الدولة العباسية في مصر، وأول خلفائها أحمد ابن الخليفة الظاهر، بايعه السلطان الظاهر بالخلافة بحضور الشيخ عز الدين عبد السلام، واستمر حكم المماليك في مصر والشام إلى أن قام الحكم العثماني في ٩٢٣هـ(١٥١٧م) الذي استمر إلى أوائل القرن العشرين.

العثمانيون

ينتمي الحكام العثمانيون إلى السلطان عثمان خان، ووجد في هذه الأسرة حكام وأباطرة سخروا أوربا للإسلام، كان منهم

محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية في عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، والسلطان سليم الذي أدخل مصر في الدولة العثمانية بعد أن فتحها من أيدي المماليك، والسلطان سليمان الأعظم القانوني.

وكان عهده عهد الازدهار والكمال، وفي آخر عصورهم كان السلطان عبد الحميد من الملوك العثمانيين، وبسقوط الخلافة العثمانية في عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م دخلت البلدان العربية في سلطة الدول الأوربية المسيحية كلياً.

الحكم الإسلامي في الأندلس

فتح المسلمون الأندلس بقيادة طارق بن زياد في عهد بني أمية، ثم ضعف حكمهم، فلما قامت الدولة العباسية توجه عبد الرحمن الداخل وهو من البيت الأموي إلى الأندلس وألف بين القبائل المتحاربة في الأندلس، وأنشأ دولة إسلامية مستقلة، يعتبر عهد عبد الرحمن الناصر العصر الذهبي، نهضت فيه الآداب والعلوم، ونافست فيه قرطبة بغداد والقاهرة، وبنى الناصر قصراً سماه بالزهراء، امتاز عهد الحكم لعبد الرحمن الناصر بإنشاء المدارس والمكاتب، وبعد موت "الحكم" بدأ يدب الضعف في الحكومة الأموية، فسقطت أجزاء من المملكة، وقام ملوك الطوائف، منها الدولة العبادية والجهورية ودولة المرابطين والموحدين، وآخرها دولة بني الأحمر التي كانت في غرناطة، وسقطت غرناطة أمام الصليبيين في سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) بعد ثمانية قرون من الفتح العربي، آخر ملوكها أبو عبد الله، وكان

سقوط غرناطة إثر معاهدة صلح تم إبرامها بين الملك والصليبيين، وقد خرق الصليبيون هذه المعاهدة، ونكثوا العهد، ولم يلتزموا بشروط المعاهدة التي كانت تتضمن على وقاية سائر المؤسسات الإسلامية والاحتفاظ بالشخصية الإسلامية، فقامت الحكومة الصليبية بإجبار المسلمين على الدخول في المسيحية أو الخروج من البلاد، واستمر الكفاح لبقاء المسلمين على هويتهم الإسلامية قرنين، ثم تم الجلاء، واستولى الصليبيون على المساجد والمدارس وحولوها كنائس مسيحية، كان سقوط غرناطة نكسة أكبر من نكسة بغداد، فقد عادت بغداد إلى إسلاميتها و عربيتها، أما الأندلس فلا تزال في أيدي الصليبيين، أعادها الله إلى الإسلام والمسلمين.

وقد كانت للأندلس مساهمة كبرى في خدمة الثقافة الإسلامية، وكان لعلمائها وأدبائها ابتكارات، وللوكها صنائع لا ينساها التاريخ، وقد مثلت الأندلس دوراً رائعاً في جميع العلوم والآداب والفنون بأقسامها المختلفة، وكان سقوطها أكبر حادثة في تاريخ الإسلام، سالت عليها الدموع، ولا تزال ذكرياتها تفيض العيون، فقد كان سقوط الأندلس بداية لاستعلاء الغرب، وقد أخذت أوربا العلوم المتداولة من الأندلسيين

الفصل الثالث

الحكم الإسلامي في الهند

دخلت الهند في خريطة العالم الإسلامي في القرن الأول للهجرة، بعد فتح "السند" بيد محمد بن قاسم الثقفي الذي ولاه حجاج بن يوسف الثقفي على ثغر الهند في أيام الوليد بن عبد الملك، ثم دخلت القبائل الأفغانية التي كانت تدخل الهند في موجات متتالية من شمال غربي الهند، ثم تعود إلى مقرها، وظلّ الحكم متداولاً بين حكام مختلفين من غزنيين وغوريين، وغيرهم من الأسر الحاكمة والمماليك إلى عهد الملك المغولي همايون بن بابر الذي تولى الحكم في عام ٩٣٣هـ، فأقام حكم المغول الذي دام إلى القرن الثالث عشر، وانتهى باستيلاء الإنجليز على الهند كلياً بعد نفي آخر ملوك المغول بهادر شاه ظفر إلى بورما في عام ١٢٧٣هـ(١٨٥٧م).

كان أول من دخل الهند من الفاتحين من غير العرب والذين دخلوا بطريق الجبال الغربية، محمود بن سبكتكين الغزنوي(٣٨٨-٤٢١هـ) صاحب الحملات المتالية المشهورة، فقد شن محمود الغزنوي حوالي ١٧ غارة مكثفة انتصر فيها، وعاد إلى غزنة، ونال تقدير الخليفة العباسي في بغداد على انتصاراته الساحقة، وحطمت حملات الغزنويين صلب المقاومة

الهندية، لأنها كانت متكررة ومتتالية، ومتوسعة، توغل فيها الغزنويون إلى أماكن بعيدة مترامية حول دلهي إلا أنه لم يستهدفوا دلهي والمناطق المركزية.

وفي عهد الغوريين فتحت غجرات بيد قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين الغوري، الذي توجه إلى الهند عام ٥٧٢هـ، وفي عهد علاء الدين الخلجي أقيمت دولة إسلامية في "نهروالا" بغجرات، وأقيم أول مسجد فيها، ودخل قطب الدين أيبك دلهي عام ٥٨٩هـ، وجعلها دار ملكه، وفتح مناطق واسعة، وبعد وفاته تولى الحكم السلطان شمس الدين التمش.

ثم جاءت أسرة تغلق التي كانت مملكتها تابعة للخلافة العباسية، وفي عهدها توسع نطاق الحكم الإسلامي إلى مناطق شاسعة، ثم تولت الحكم الأسرة اللودهية.

وفي سنة ٩٣٣ هـ جاء بابر التيموري من كابل، وأسس الإمبراطورية المغولية، وفي عهد ابنه نصير الدين همايون (م٩٦٣هـ) نهض الملك شير شاه فريد خان السوري (م ٩٥٢هـ) الذي أسس دولة منظمة لم تسبق، ثم تولى الحكم الملك أكبر بن همايون بعد والده الذي كان أجبر على الخروج من الهند، وخلفه بعد وفاته ابنه جهانكير الذي رباه تربية حسنة الإمام أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي عام ١٠١٤هـ، فأصلح ما أفسده والده، وتغير نظام الدولة بتأثير صلة الإمام السرهندي (٩٧١-١٠٣٤هـ/١٥٦٣-١٦٢٤م).

ثم انتقلت الولاية إلى ابنه شاهجهان (م ١٠٦٨هـ) وقد خلف شاه جهان آثار إسلامية خالدة، منها الجامع الكبير، والقلعة الحمراء في دلهي، والتاج محل في آجره، وهي الدرة اليتيمة في البناء، ثم تولى الحكم الإمبراطور أورنج زيب بن شاه جهان (م ١١١٨هـ) الذي فتح عهداً جديداً وأعاد للإسلام مجده وصولته، ونفذ التعاليم الإسلامية، يعتبر عهد الملك أورنج زيب العهد الذهبي، نفذت فيه التعاليم الإسلامية والشريعة الإسلامية، ودونت الفتاوى، وقضى على رواسب الحكم السابق الذي كان قد انحرف عن الإسلام.

وبعد وفاة السلطان أورنج زيب في عام ١٧٠٧م تفككت السلطة السلالية، وتفرقت كلمة المسلمين، فحدث انفصال عدة أجزاء من الحكومة المركزية بدلهي، واستولى غير المسلمين (المراهتة، قبائل جات، السيخ) على أجزاء أخرى، وأنشأوا دولة موحدة، وفي هذا الوضع جاءت حملات نادرشاه الذي هاجم دلهي كالعاصفة (١١٥١هـ/١٧٣٨م) وهزكيان الدولة المغولية، وبعد رجوع أحمد شاه الأبدالي الذي جاء عام ١٧٥٧م بدعوة الشيخ ولي الله الدهلوي إلى مقره، امتد الصراع بين الأمراء، واستغل الإنجليز هذا الصراع، ولم يلق الإنجليز مقاومة تذكر في بسط نفوذهم إلا من السلطان تيبو حاكم ميسور(م١٢١٢هـ-١٧٩٩م) الذي قال عند وفاته القائد الإنجليزي الجنرال هارسن: من اليوم الهند لنا".

وفي عام ١٢١٨ هـ /١٨٠٣م دخلت قوات الإنجليز

دلهي بقيادة اللوردليك، في عام ١٨٥٧م استولى الإنجليز كلياً على الهند بعد فشل محاولة الثورة التي قادها العلماء، ونفي آخر الملوك المغول بهادر شاه ظفر إلى "رنجون" عاصمة بورما، وبها توفي سنة ١٢٢٨هـ، ودام حكم الإنجليز قرابة مائة سنة.

وفي عام ١٩٤٧م تحررت الهند من الاستعمار البريطاني بعد كفاح طويل، وانقسمت الهند إلى دولتين: الهند ذات الأغلبية الهندوسية، وباكستان ذات الأغلبية الإسلامية، وفي عام ١٩٧١م انفصلت ولاية بنغال الشرقية من باكستان، وقامت بنجلاديش ذات الأغلبية الإسلامية.

فخلاصة القول إن المسلمين قد توجهوا إلى الهند في القرن الأول، وكانت الاتصالات التجارية والعلمية قائمة بين الهند والبلاد العربية خلال العصور السابقة للإسلام وتوالت الحملات الإسلامية بعد قيام الحكم الإسلامي في السند، في عهد بني أمية، ولكن الغزاة المسلمين لم يفكروا في الاستقرار بهذه البلاد، وتحويل هذه البلاد إلى صرح إسلامي إلا في القرن السابع بعد سقوط بغداد، فلما سقطت بغداد في أيدي التتر ودمرت البلاد نزح منها العلماء والفنانون، توجه عدد منهم إلى الهند، وقد كان القرن السابع فترة حاسمة للبلاد العربية، وقد كانت مصر والشام والعراق عرضة للغارات المغولية والصليبية، ولقيت المنشآت الإسلامية من المكتبات والمدارس تدميراً كبيراً فانتقل التراث العلمي والحضاري إلى الهند التي قامت فيها الدولة الإسلامية الفتية، وقد كان جو الهند مساعداً على التفكير والابتكار، فقام هؤلاء العلماء بتنمية المعارف التي نقلوها إليها،

وعرفت عدة مدن هندية بدورها الرائد في البحث العلمي، وتبنى الحضارة الإسلامية، ونافست هذه المدن بغداد، والقاهرة، وقرطبة، وبخارى، وأصفهان، وشيراز في مجالس العلم، ومدارس الفكر والإنتاج، كانت في مقدمتها "ملتان" و"لاهور" وبلاد كجرات، حيث استقر علماء شيراز وأرض اليمن، وجونفور، ودلهي ولكناؤ، وبلاد دكن ومالوه ولا تزال هذه المدن تمثل آثار المدنية الإسلامية وأنجبت هذه المدن علماء مبدعين في مجالات مختلفة للمعرفة، كما أنجبت فنانين وإداريين، عرفت مكانتهم في أقطار العالم الإسلامي الأخرى، وقد كان موقف علماء الهند إزاء العلم كسلفهم موقف الإبداع والتنقيح، والبحث عن مجالات جديدة، وقاموا بصياغة بعض المعلومات والأعمال الفنية صياغة جديدة فأغنوا المكتبة الإسلامية بمؤلفات وبحوث، ونالت اعتراف العلماء في البلاد العربية، وبذلك شكلت مدرسة هندية مستقلة في العلم والآداب والفن والسياسة والإدارة والاقتصاد، ولا يستغني باحث في العلم والفن عن مساهمات علماء الهند مهما تقدم العلم في مراكزه، وقد مرت تجربة علمية للهند بمراحل مختلفة من التهذيب والتنقيح، وقام العلماء بإعداد المناهج والمدارس للعلم في البيئة الهندية والإيرانية والعربية، وبذلك تميزت المدرسة الهندية عن المدرسة العربية والفارسية، وكان لها طابعها الخاص ولا تزال هذه المدرسة تتميز بالأصالة والإبداع.

أبناء الهند النوابغ في الفضائل المختلفة

٤ من أبنائها الشيخ فريد الدين مسعود الأجودهني (م٦٦٤هـ) والشيخ بهاء الدين زكريا بن محمد الملتاني (م٦٦٦هـ) والشيخ علي بن أحمد الكليري (م٦٨٩هـ) والشيخ نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني(م٧٢٥هـ) والشيخ نصير الدين الأودي المعروف بچراغ دهلي (م٧٥٧هـ) والشيخ أشرف جهانكير السمناني(م٨٠٨هـ) والشيخ نور الحق البندوي (م٨١٨هـ) والشيخ محمد بن يوسف الحسيني دفين كلبركه (٨٢٥هـ) والشيخ أحمد عبد الحق الردولوي (م٨٣٦هـ) وعلي بن القوام المشهور بـ علي عاشقان السراي ميري (م٩٥٥هـ) والشيخ محمد غوث الكواليري (م٩٧٠هـ) والشيخ كمال الدين الكيتهلي(م٩٧١هـ) والشيخ عبد الباقي (باقي بالله) النقشبندي (م١٠١٤هـ) والشيخ تاج الدين السنبهلي (م١٠٥٠هـ) والسيد آدم ابن إسماعيل البنوري (م١٠٥٣هـ) والشيخ معصوم بن أحمد السرهندي (م١٠٧٩هـ) والشيخ محمد زبير السرهندي (م١١٥١هـ) وشمس الدين حبيب الله مرزا جان الدهلوي (م١١٩٥هـ) والشيخ فخر الدين الدهلوي (م١١٩٩هـ) والشيخ غلام علي الدهلوي (م١٢٤٠هـ) والشيخ محمد آفاق (م١٢٥١هـ) ومولانا فضل الرحمن الكنج مرادآبادي

(م١٣١٣هـ) والحاج إمداد الله التهانوي(م١٣١٧هـ) في آخرين ممن تنورت بهم الأقطار الهندية وتعطرت بأنفاسهم الأرجاء الشرقية والغربية، وانتفع بهم خلائق لا يحصيهم إلا الله.

وفي إقامة عوج الزائغين ورد تحريف الغالين وانتحال المبطلين وفي المعارف الدينية والعلوم النبوية والحكم الشرعية، ترى مثل الإمام الرباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي مجدد الألف الثاني(م١٠٣٤هـ) صاحب الرسائل الخالدة، وحكيم الإسلام الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م١١٧٦هـ) صاحب"حجة الله البالغة" و"إزالة الخفاء" والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (م١٢٤٦هـ) صاحب الدعوة والجهاد وكتاب الصراط المستقيم، وحجة الإسلام الشيخ إسماعيل بن عبد الغني ابن الشيخ ولي الله صاحب أبحاث ومواقف في دعوة التوحيد والسنة والجهاد (م١٢٦٤هـ) وأولئك الذين رجحت بهم كفة الهند في الجهاد والتجديد على العالم الإسلامي في العصور الأخيرة.

وفي الورع والزهادة والمحافظة على السنن الدقيقة والأخذ بالعزائم والتحرز عن البدع والإنكار على محدثات الأمور الشيخ ضياء الدين السنامي من رجال القرن الثامن والشيخ حسام الدين الملتاني (م٩٦٠هـ) والشيخ عبد الوهاب المتقي (م١٠٠١هـ) والشيخ عبد اللطيف البرهانبوري المتورع (م١٠٦٦ هـ) والشيخ سيف الدين السرهندي (م١٠٩٦هـ) والشيخ علم الله الحسني النقشبندي (م١٠٩٧هـ) والشيخ جعفر بن باقر الدلوي (م١٢٣٢هـ) والشيخ

مظفر حسين الكاندهلوي (م١٢٨٣هـ) والسيد خواجة أحمد النصير آبادي (م١٢٨٩هـ) والشيخ عبد الله الغزنوي (م١٢٩٨هـ) والسيد مصطفى التونكي (م١٣٢٠هـ) والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي (م١٣٢٣هـ) من الجبال الراسيات في لزوم التقوى والتحرز عن الشبهات وآيات الله البينات في الحسبة الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات.

وفي كبر النفس والشهامة وعلو الهمة في خدمة الدين والصبر على البلاء وتحمل الأذى في ذات الله والجهر بكلمة الحق عند سلطان جائر، الشيخ علاء بن الحسن البيانوي (م٩٥٧هـ) والشيخ أمير علي الأميتهوي(م١٢٧٣هـ) والشيخ ولايت علي العظيم آبادي (م١٢٧٩هـ) وأبو عبد الله السيد نصير الدين الدهلوي الشهيد من رجال القرن الثالث عشر والشيخ يحيى علي العظيم آبادي (م١٢٨٤هـ) والشيخ محمود حسن الديوبندي (م١٣٣٩هـ) من المتأخرين.

وفي كثرة الإرشاد وانتشار الهداية وفيضان النفع والتأثير في القلوب الشيخ إسماعيل اللاهوري (م٤٤٨هـ) والشيخ علي ابن الشهاب الهمداني (م٧٨٦هـ) من الأولين، والشيخ عبد الحي ابن هبة الله البرهانوي (م١٢٤٣هـ) والشيخ محمد علي بن عنايت على الواعظ الرامبوري(م١٢٨٢هـ) والشيخ كرامت علي الجونبوري صاحب الدعوة والإرشاد في بنكاله (م١٢٩٧هـ) والشيخ غلام رسول القلعوي من رجال القرن الرابع عشر

والشيخ محمد إلياس بن الشيخ إسماعيل الكاندهلوي الدهلوي صاحب الدعوة والإصلاح في ميوات (م١٣٦٣هـ) من المتأخرين الذين اهتدى بهم خلائق لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج وشعر غني بني كلب.

ومن المتضلعين من العلوم النقلية والراسخين في علم الكتاب والسنة النبوية مثل الشيخ علي بن حسام الدين المتقي صاحب كنز العمال (م٩٧٥هـ) والعلامة عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي صاحب اللمعات في شرح المشكاة (م١٠٥٢هـ) والقاضي ثناء الله الباني بتي صاحب "التفسير المظهري" (م١٢٢٥هـ) والشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي صاحب "فتح العزيز" والفتاوى الشهيرة (م١٢٣٩هـ) والشيخ عبد القادر ابن الشيخ ولي الله صاحب ترجمة القرآن "موضح القرآن" (م١٢٣٠هـ) الذين أطبق على فضلهم علماء الآفاق، وسارت بمصنفاتهم الرفاق.

دخلت الهند في حلبة علم الحديث متأخرة (في القرن العاشر) ولكنها سبقت كثيراً من الأقطار، ونهض منها الأئمة الكبار، وانتهى إليهم تدريس هذا الفن والقيام بحقوقه، حتى أصبحت هذه البلاد مركزاً لهذا الفن الشريف، يشد إليه الرحال ويضرب به أكباد الإبل.

فممن يرجع إليهم الفضل في نشر هذا الفن في هذه البلاد(عدا الأئمة الأعلام والمحدثين العظام)كالشيخ علي المتقي

والشيخ محمد طاهر الفتني والشيخ عبد الحق الدهلوي والشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي والقاضي ثناء الله الباني بتي والشيخ عبد العزيز الدهلوي) هم الشيخ راجح بن داود الكجراتي (م٩٠٤هـ) والشيخ عبد الأول بن علي بن العلاء الحسني الجونبوري صاحب فيض الباري شرح صحيح البخاري (م٩٦٨هـ) والشيخ عبد الله بن سعد الله السندي(٩٨٤هـ) والشيخ عبد النبي بن أحمد الكنكوهي(م٩٩١هـ) والشيخ عبد الله بن شمس الدين السلطانبوري(م٩٩١هـ) والشيخ رحمة الله ابن عبد الله السندي(م٩٩٤هـ) والشيخ أحمد بن إسماعيل المندوي والشيخ عليم الدين المندوي من رجال القرن العاشر والشيخ إبراهيم بن داود المانكبوري الأكبرآبادي (م١٠٠١هـ) والشيخ طاهر بن يوسف السندي (م١٠٠٤هـ).

ومن أهل الطبقة الثانية الشيخ نور الحق بن الشيخ عبد الحق الدهلوي صاحب شرح الجامع الصحيح بالفارسية (م١٠٧٣هـ) والشيخ أبو الحسن السندي الكبير صاحب الحواشي الستة على الصحاح الستة (م١١٣٨هـ) والشيخ محمد أفضل السيالكوتي (م١١٤٦هـ) والشيخ صفة الله الرضوي (م١١٥٧هـ) والشيخ محمد فاخر بن محمد يحيى السلفي الإله الآبادي (م١١٦٤هـ) والشيخ خير الدين السورتي (م١٢٠٦هـ) ومولانا شيخ الإسلام الدهلوي صاحب كشف الغطاء من رجال القرن الثاني عشر والشيخ سلام الله بن شيخ الإسلام صاحب المحلي

شرح الموطأ (م١٢٢٩هـ).

ومن رجال الطبقة الثالثة الشيخ محمد إسحاق بن أفضل الدهلوي (م١٢٦٢هـ) والشيخ عبد الحق النيوتني البنارسي (م١٢٧٦هـ) والشيخ عالم بن النكينوي (م١٢٩٥هـ) والشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي صاحب إنجاح الحاجة (م١٢٩٦هـ) والشيخ أحمد علي بن لطف الله السهانبوري صاحب التعليق على الجامع الصحيح (م١٢٩٧هـ) والشيخ عبد القيوم بن الشيخ عبد الحي البدهانوي (م١٢٩٩هـ) والسيد حسن شاه الرامبوري (م١٣١٢هـ) والقارئ عبد الرحمن الباني بتي (م١٣١٤هـ) والسيد نذير حسين الدهلوي (م١٣٢٠هـ) والقاضي محمد بن عبد العزيز المجهلي شهري (م١٣٢٠هـ) والشيخ محمد بشير السهسواني (م١٣٢٣هـ) والشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني البهوبالي (م١٣٢٧هـ) والشيخ عبد المنان الوزير آبادي (م١٣٣٤هـ) والشيخ عبد الله الغازي بوري (م١٣٣٧هـ) والشيخ شمس الحق الديانوي العظيم آبادي صاحب غاية المقصود والشيخ خليل أحمد السهارنبوري صاحب بذل المجهود (م١٣٤٦هـ) أصبحت الهند بفضلهم حارسة لهذا الفن الشريف لم تتكس رايته ولم تكسد بضاعته حتى قال بعض كبار علماء العرب [1]: "لو لا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقضى عليها بالزوال من أمصار الشرق فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ

[1] العلامة السيد رشيد رضا منشئ مجلة المنار المصرية.

القرن العاشر للهجرة حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر [1].

وفي المعارف الإلهية والأسرار مثل أبي علي السندي من رجال القرن الثالث والشيخ شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري صاحب الرسائل العالية والعلوم الراسخة(م٧٧٢هـ) والشيخ علي بن أحمد المهائمي صاحب التبصير(م٨٣٥هـ) والشيخ صبغة الله الحسيني صاحب رسالة إراءة الدقائق (م١٠١٥هـ) والشيخ عيسى بن قاسم السندي صاحب أنوار الأسرار (م١٠٣١هـ) والشيخ عبد النبي الشطاري الأكبرآبادي من رجال القرن الحادي عشر.

ومن حاملي لواء التوحيد الوجودي وأصحاب الأذواق والعلوم الوجدانية الشيخ عبد القدوس الكنكوهي (م٩٤٤هـ) والشيخ عبدالرزاق الجهنجهانوي (م٩٤٩هـ) والشيخ عبد العزيز الدهلوي المعروف بـ شكربار (م٩٧٥هـ) والشيخ محمد بن فضل الله البرهانبوري (م١٠٢٩هـ) والشيخ محب الله الإله آبادي (م١٠٥٨هـ) والشيخ محمد حسين الإله آبادي (م١٣٢٢هـ) كان كل واحد منهم فريد عصره ووحيد دهره، كان كل واحد منهم ابن عربي عصره وابن فارض مصره.

ومن الأئمة المحققين في اللغة العربية الذين لهم منة على الناطقين بالضاد والمشتغلين بعلوم الدين واللغة في أنحاء المعمورة،

---

[1] مقدمة مفتاح كنوز السنة.

الشيخ حسن بن محمد الصغاني صاحب العباب الزاخر (م٦٦٠هـ) والشيخ محمد طاهر الفتني صاحب مجمع بحار الأنوار في غريب الحديث (م٩٨٦هـ) والسيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس(م١٢٠٥هـ) قد أكب على كتبهم علماء العرب دراسة وشرحاً وتلخيصاً واقتباساً.

وفي العلوم العقلية والفنون الحكمية مثل الشيخ محمود ابن محمد الجونبوري صاحب الشمس البازغة (م١٠٨٢هـ) والقاضي محب الله البهاري صاحب سلم العلوم (م١١١٩هـ) والشيخ حمد الله السندیلوي صاحب شرح السلم والتعليقات على كتب الحكمة (م١١٦٠هـ) والقاضي مبارك بن دائم الكوباموي صاحب التعليقات وشرح سلم العلوم (م١١٦٢هـ) والشيخ غلام البهاري صاحب الحاشية الدقيقة على رسالة مير زاهد (م١١٨٠هـ) ومولانا محمد حسن اللكهنوي صاحب شرح السلم (م١١٩٩هـ) والشيخ رفيع الدين ابن الشيخ ولي الله الدهلوي صاحب إبطال البراهين الحكمية ورسائل في المنطق والحكمة (م١٢٣٣هـ) والشيخ فضل إمام الخير آبادي صاحب المرقاة في المنطق وتلخيص الشفاء للشيخ الرئيس (م١٢٤٣هـ) الذين خضعت لهم مناهج التعليم وباهت بنتائج شكرهم الأوساط العلمية.

وفي العلوم الرياضية والهيئة والنجوم مثل ميرك عبد الباقي التتوي صاحب الأشكال الجديدة (م٩٨٣هـ) والشيخ فريد

الديـن الدهلـوي صـاحب الزيـج الشـاهجهاني (م١٠٢٩هـ) والعلامـة تفضـل حسـين اللكـهنوي صـاحب الشـروح علـى المخروطـات والرسـالتين في الجبر والمقابلة (م١٢١٥هـ) وقـاضي القضـاة نجـم الديـن الكـاكوروي صـاحب السـتة الجبريـة (م١٢٢٩هـ) وخواجـه فريـد الديـن الدهلـوي صـاحب فوائـد الأفكار والتحفة النعمانية (م١٢٤٤هـ) وشمس الأمراء النواب فخر الدين الحيدرآبادي صاحب شمس الهندسة والستة الشمسية (م١٢٧٩هـ) بلغوا درجة الإبداع وفاقوا في الصناعة والاختراع.

وفي كثرة التدريس والإفادة والتثقيف والاجتهاد في تعليم العلوم وحسن الشرح والتلخيص مثل عبد الله التلنبي (م٩٢٢هـ) والشيخ عزيز الله التلنبي (م٩٢٣هـ) والعلامة وجيه الديـن بـن نصر الله الكجراتي صاحب الحواشي والشروح على الكتـب الدرسـية (م٩٩٨هـ) والمفـتي عبـد السـلام اللاهوري صـاحب الحاشية على البيضـاوي (م١٠٣٧هـ) والمفـتي عبـد السـلام الديـوي صـاحب الحواشي على الكتب الدرسية والعلامة عبد الحكيم السيالكوتي صـاحب الحواشي والرسـائل (م١٩٦٧) والشيخ أحمـد بـن أبـي سعيد الأميتهوي صاحب التفسيرات الأحمديـة ونـور الأنـوار في شرح المنار (م١١٣٩هـ) والشيخ نظام الدين بن قطب الله السهالوي صـاحب الشروح والحواشي (م١١٦١هـ) والشيخ عبد العلي بـن نظام الدين صاحب شرح السلم والمسلم (م١٢٣٥هـ) كان كـل واحد منهم غيث الإفادة الهتون وعالم الربع المسكون.

وفي نشر العلوم وتخريج الطلبة وتربيتهم أمثال الشيخ أحمد بن عمر شهاب الدين الدولت آبادي (م٨٤٩هـ) والشيخ أبي الفتح بن عبدالحي بن عبد المقتدر الدهلوي (م٨٥٨هـ) والشيخ محمد أعظم بن أبي البقاء اللكهنوي (م٨٧٠هـ) والشيخ سماء الدين الملتاني (م٩٠١هـ) والشيخ إله داد بن عبد الله الجونبوري(م٩٢٣هـ) والمفتي أبي الفتح بن عبد الغفور التهانيسري (م٩٧٦هـ) والقاضي عبد القادر العمري اللكهنوي (م١٠٦٧هـ) والشيخ محمد رشيد الجونبوري (م١٠٨٣هـ) والشيخ بير محمد اللكهنوي (م١٠٨٥هـ).

ومن أهل الطبقة الثانية الشيخ كمال الدين الفتحبوري (م١١٧٥هـ) والشيخ عبد الباسط القنوجي (م١٢٢٣هـ) والشيخ رشيد الدين الدهلوي (م١٢٤٣هـ) والشيخ مملوك العلي النانوتوي (م١٢٦٧هـ) والشيخ ولي الله اللكهنوي (م١٢٧٠هـ) والشيخ حيدر علي الرامبوري التونكي (م١٢٧٣هـ) والشيخ سخاوت علي الجونبوري (م١٢٧٤هـ) والمفتي عنايت أحمد الكاكوري (م١٢٧٩هـ) والمفتي محمد يوسف بن أصغر اللكهنوي (م١٢٨٦هـ) والشيخ يعقوب بن مملوك العلي (م١٣٠٢هـ) والشيخ عبد الحق الخيرآبادي (م١٣١٨هـ) ومولانا محمد نعيم اللكهنوي (م١٣١٨هـ) والشيخ أحمد بن حسن الكانبوري (م١٣٢٢هـ) والشيخ هداية الله الرامبوري (م١٣٢٦هـ) والشيخ محمد فاروق الجرياكوتي (م١٣٢٧هـ) والمفتي لطف الله الكوئلي

(م١٣٣٤هـ) والحكيم بركات أحمد التونكي (م١٣٤٧هـ) قامت بهم دولة العلم في الهند ونفقت على أيديهم سوق التدريس وتخرج عليهم خلق لا يحصون كثرة.

وفي سيلان الذهن وقوة العارضة والذب عن الحق والحمية للدين الشيخ محمد قاسم النانوتوي صاحب الرسائل البديعة والأبحاث اللطيفة ومؤسس معهد ديوبند الكبير (م١٢٩٧هـ) والشيخ حيدر علي الفيض آبادي صاحب منتهى الكلام (م١٢٩٩هـ) والشيخ رحمة الله الكيرانوي صاحب إظهار الحق ومؤسس المدرسة الصولتية بمكة المعظمة (م ١٣٠٩هـ) والشيخ محمد علي الكانبوري المونكيري صاحب رسائل في الرد على النصارى ومؤسس ندوة العلماء ومعهدها في لكناؤ (م١٣٤٦هـ) قاموا قيام المجاهدين وزادوا عن حياض الدين، وألفوا كتباً سائرة وشادوا للدين والعلم ربوعاً عامرة.

وفي قوة الحفظ وخصب الذهن وسعة الاطلاع واستحضار المسائل الشيخ فرخ شاه السرهندي (م١١٢٢هـ) والسيد عبد الجليل الحسني البلكرامي (م١١٣٨هـ) والشيخ محمد أعلى التهانوي صاحب كشاف اصطلاحات الفنون من رجال القرن الثاني عشر والشيخ باقر بن مرتضى المدراسي (م١٢٢٠هـ) والسيد أنور شاه الكشميري (م١٣٥٢هـ).

وفي سرعة التأليف وسيلان القلم وكثرة المؤلفات وتنوع الموضوعات الشيخ عبد الحي بن عبد الحليم اللكهنوي

(م١٣٠٤هـ) والأمير السيد صديق حسن خان (م١٣٠٧هـ) والشيخ أشرف علي التهانوي (م١٣٦٢هـ) تربو مؤلفاتهم على مؤلفات قطر بأسره.

وفي جودة التأليف وحسن الجمع وتحرير التاريخ وسعة الاطلاع على أحوالي البلاد والرجال، الشيخ سديد الدين (نورالدين) محمد بن محمد العوفي صاحب لباب الألباب وجوامع الحكايات ولوامع الروايات والقاضي منهاج الدين عثمان بن محمد الجوزجاني صاحب طبقات ناصري من رجال القرن السابع والقاضي ضياء الدين البرني صاحب تاريخ فيروز شاهي (م٧٥٨هـ) ومولانا غياث الدين الهروي(م٩٤٤هـ) والشيخ عبد القادر بن ملوك شاه صاحب منتخب التواريخ(م١٠٠٤هـ) وأبوالفضل بن مبارك (م١٠١١هـ) والشيخ محمد قاسم بن غلام علي صاحب "كلزار إبراهيمي" (تاريخ فرشتة) (م١٠١٧هـ) وبختيار خان العالمكيري (م١٠٩٦هـ) وعبد الرزاق الخوافي المعروف بـ شهنوازخان (١١٧١هـ) والشيخ غلام حسين الطباطبائي صاحب سير المتأخرين (م١٢٠٠هـ) والشيخ عبد القادر بن محمد أكرم الرامبوري (م١٢٦٥هـ) والشيخ شبلي النعماني صاحب "الفاروق" و"شعر العجم" والمؤلفات الكثيرة (م١٣٣٢هـ) والسيد عبد الحي الحسني صاحب "نزهة الخواطر" و"جنة المشرق" و"معارف العوارف" (م١٣٤١هـ).

ومن أهل الاتقان والتدقيق في علوم اللغة والاشتقاق

وأهل البصر والإبداع في علم البلاغة والإعجاز والشيخ أوحد الدين البلكرامي صاحب نفائس اللغات ومفتاح اللسان (م١٢٥٠هـ) والشيخ عبد الرحيم الصفي بوري صاحب منتهى الأدب (م١٢٦٧هـ) والقاضي كرامت حسين الكنتوري صاحب فقه اللسان (م١٣٣٥هـ) والمفسر المدقق والأديب المتقن الشيخ حميد الدين الفراهي صاحب نظام القرآن وجمهرة البلاغة (م١٣٤٩هـ) على اختلاف طبقاتهم وأذواقهم.

ومن شعراء العربية المفلقين القاضي عبد المقتدر الكندي صاحب القصيدة اللامية (م٧٩١هـ) والشيخ أحمد بن محمد التهانيسري صاحب القصيدة الدالية (م٨٢٠هـ) والشيخ غلام نقشبند اللكهنوي صاحب القصيدة المدحية اللامية (م١١٢٦هـ) والشيخ غلام علي آزاد البلكرامي صاحب السبع السيارة (م١٢٠٠هـ) والمفتي إسماعيل بن الوجه اللكهنوي من رجال القرن الثالث عشر والشيخ فضل حق الخيرآبادي صاحب القوافي والتجنيس، وصاحب الشعر الرصين الرقيق السيد أحمد حسن بن أولاد حسن القنوجي (م١٢٧٧هـ) والمفتي صدرالدين الدهلوي صاحب العينية الرقيقة (م١٢٨٥هـ) والشاعر العربي القدير الشيخ فيض الحسن السهارنبوري (م١٣٠٤هـ) والشيخ ذو الفقار على الديوبندي (م١٣٢٢هـ) والشيخ نذير أحمد الدهلوي (م ١٣٣٠هـ).

ومن شعراء الفارسية الشيخ أبو الفرج بن مسعود

اللاهوري (م٤٨٤هـ) والشيخ مسعود بن سعد اللاهوري من رجال القرن الخامس والأمير خسرو ابن سيف الدين الدهلوي (م٧٢٥هـ) وحسن بن علاء السجزي الدهلوي من رجال القرن الثامن وأبو الفيض بن مبارك الفيضي (م١٠٠٢هـ) ومحمد طاهر غني الكشميري (م١٠٧٩هـ) والشيخ ناصر علي السرهندي (م١١٠٨هـ) ومرزا عبد القادر بيدل (م١١٣٣هـ) وأسد الله خان غالب الدهلوي (م١٢٨٥هـ) والدكتور محمد إقبال اللاهوري (م١٣٥٧هـ) شهد لهم أدباء إيران بالإجادة والإبداع في الشعر الفارسي.

ومن فحول شعراء لغة الهند القروية (بهاشا) ملك محمد الجايسي (م٩٧٧هـ) ورزق الله بن سعد الدهلوي (م٩٨٩هـ) ورحمة الله بن خير الدين البلكرامي(م١١١٨هـ) والشيخ بركة الله المارهروي (م١١٤٢هـ) والشيخ قاسم بن أمان الله الدريابادي (م١١٤٩هـ) والشيخ غلام نبي البلكرامي (م١١٦٣هـ) ومولانا محمد زاهد البريلوي (م١٣٧٨هـ) والشيخ فخر الدين بن عبد العلي الحسني (م١٢٢٦هـ) عبروا عن شعور رقيق بشعر رقيق، يكاد يسيل عذوبة وسهولة، تغنت به العواتق في الخدور، وسار مسير الأمثال في المجالس والدور.

ومن المبرزين في شعراء أردو (لغة الهند المنقحة) مرزا رفيع سودا (م١١٩٥هـ) وخواجه مير درد الدهلوي (م١١٩٨هـ) والسيد غلام حسن الدهلوي(م١٢٠١هـ) ومير محمد تقي

الأكبرآبادي (م١٢٢٥هـ) والسيد إنشاء الله المرشدآبادي الدهلوي (م١٢٣٣هـ) وغلام همداني المصحفي (١٢٤٠هـ) وإمام بخش ناسخ اللكهنوي (م١٢٥٤هـ) وحيدر علي آتش اللكهنوي (م١٢٦٣هـ) ومحمد مؤمن خان الدهلوي (م١٢٦٨هـ) ومحمد إبراهيم ذوق الدهلوي (م١٢٧١هـ) وأسد الله خان غالب الدهلوي (م١٢٨٥هـ) وأمير أحمد الميناني اللكهنوي (م١٣١٨هـ) ونواب مرزا خان داغ الدهلوي (م١٣٢٢هـ) ومحمد محسن خان الكاكوروي (م١٢٢٣هـ) ومرزا سلامت علي دبير اللكهنوي (م١٣٢٩هـ) وميربير على أنيس اللكهنوي(م١٢٩١هـ) وخواجه ألطاف حسين الباني بتي (م١٣٢٣هـ) والسيد أكبر حسين الإله آبادي (م١٣٤٩هـ) والدكتور محمد إقبال والسيد فضل الحسن حسرت الموهاني، وشوكت علي خان فاني وظفر علي خان وعلى سكندر جكرالمرادآبادي، وأحمد حسين أمجد الحيدرآبادي، جاؤوا بكل معجب مطرب يترنح به عطف الأديب ويتسلى به الفؤاد المصاب الكئيب.

ومن نوابغ الأمراء والوزراء الحائزين بالحسنين والجامعين بين الإمارتين أمثال خواجه محمود كاوان الكيلاني (م٨٨٠هـ) والشيخ محمد بن محمد الإيجي خداوند خان من رجال القرن العاشر، واختيار خان (م٩٤٤هـ) والمسند العالي عبد العزيز آصف خان (م٩٦١هـ) والنواب فريد الدين مرتضى خان (م١٠٢٥هـ) وعبدالرحيم خان خانان من رجال القرن الحادي

عشر وجملة الملك العلامة سعد الله خان (م١٠٦٦هـ) ونظام الملك آصف جاه قمر الدين الحيدر آبادي (م١١٦١هـ) وحافظ الملك الحافظ رحمت خان (١١٨٨هـ) والأمير وزير الدولة صاحب تونك (م١٢٨١هـ) ومدار المهام جمال الدين خان وزير بهوبال (م١٢٩٩هـ) والأمير كلب علي خان صاحب رامبور (م١٣٠٤هـ).

ومن فضليات النساء ذوات التفنن في الفضائل البارعات في العلم والدين والسياسة والأدب وإنشاء الرسائل، السلطانة رضية بنت الايلتمش (م٦٣٩هـ) وجاند سلطانة الأحمد نكرية قرينة علي عادل شاه البيجابوري (م١٠٠٦هـ) وسلمى سلطانة بنت كل رخ بيكم بنت السلطان ظهير الدين بابر قرينة بيرم خان وقرينة أكبر بعده الشاعرة (م١٠٢١هـ) ونور جهان بيكم قرينة جهانكير (م١٠٥٥هـ) وجانان بيكم بنت عبد الرحيم بيرم خان الشاعرة وصاحبة التفسير (م١٠٧٠هـ) والمرأة الفاضلة صاحب جي بنت الأمير علي مردان خان الفارسي من أهل القرن الحادي عشر وجهان آرا بيكم بنت شاهجهان صاحبة مؤنس الأرواح في أخبار المشايخ الجشتية (م١٠٩٢هـ) والمرأة الفاضلة الشاعرة المنشئة زيب النساء بيكم بنت السلطان أورنك زيب عالمكير صاحبة زيب المنشئات (م١١١٣هـ) والسيدة أمة الغفور الدهلوية بنت الشيخ الكبير إسحاق بن أفضل المحدث الدهلوي من أهل القرن الثالث عشر والسيد فاطمة الخانبورية (م١٣٠٢هـ)

والسيدة شمس النساء السهوانية (م١٣٠٨هـ) والسيدة لحاظ النساء السهسوانية (م١٣٠٩هـ) والسيدة صالحة بنت الشيخ عنايت رسول العباسي (م١٣١٨هـ) ونواب شاهجهان بيكم ملكة بهوبال صاحبة الديوان وكتاب تهذيب النسوان (م١٣١٩هـ) والمرأة الصالحة السيدة أمة الرحمن بنت الشيخ المتورع مظفر حسين الكاندهلوي من القرن الرابع عشر، من عقائل النساء الكثيرة التي حجبت أخبارهن عن عيون الرجال، وتوارت آثارهن وراء العصور والأجيال[1].

[1] مقتبس من كلمة تقديم الدكتور السيد عبد العلي الحسني لكتاب"الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام"للعلامة الشريف عبد الحي الحسني، ١/٤-١٧ ط: دار عرفات رائي بريلي ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

الفصل الرابع

الحركة العلمية

كان العلم من الدروس الأولى للإسلام، وقد نزلت الآية الأولى في القرآن الكريم في البحث على القراءة والتعليم، والتدبر في الكون، وقد منّ الله على عباده أنه علم الإنسان ما لم يعلم، وحث القرآن في مواضع كثيرة على البحث والتدبر في آيات الله، وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم، ونشأت المدرسة الأولى في عهده وفي رعايته، وانتشرت الكتابة في توجيهه، بدأ الناس يقرأون ويكتبون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، واشتمل القرآن الكريم على مبادئ العلوم، واشتمل الحديث النبوي الشريف على توجيهات علمية، ورفعت درجة العلماء في الإسلام، وشغف المسلمون بالتعليم والتفقه، وتنمية المعرفة من كل مصدر، واكتساب العلم والنبوغ فيه، وبحث مجالات جديدة، ثم عكفوا على دراسة العلوم، والآداب للأمم الأخرى، وأنشأوا مدارس ومكتبات لتوسيع نطاق العلم، ونقلت العلوم من اللغات الأخرى، وبلغت الترجمة ذروتها في عهد الرشيد والمأمون، وأصبحت المدن الإسلامية الكبرى كالبصرة والكوفة وبغداد وقرطبة مراكز علمية، يتوجه إليها العلماء من كل جانب، تنشأ فيها مدارس

ومكتبات، ويشجع الحكام العلماء والأدباء ورجال الفن ليمارسوا مهنة نشر العلم بحرية، وفاق المسلمون في جميع العالم في خدمة العلم.

وقد كان للمدن الإسلامية دور تاريخي في نشر العلم، ومن المدن الأخرى بعد المدن المذكورة، القيروان، الفسطاط، ودمشق، وبخارى، وسمرقند، وبلخ، وهرات، وأصفهان، والري، ومرو، ونيسابور، وشيراز، وهمذان، وخوارزم، وجرجان، وطبرستان، وقزوين، وجوين، وبست بيهق، والشاش، معظم هذه المدن كانت مدناً علمية، تدرس فيها العلوم على اختلاف صنوفها في اللغة العربية، وقد وصف المقديسي القرن الرابع عشر للميلاد الذي كانت أوربا فيه في دور التتلمذ على العلماء المسلمين، وقال: إن فيه مجالس ومدارس وقرائح وصنائع ومكارم وخصائص، لا يخلو المركز من فقه ولا الرئيس من علم ولا المحتسب من حساب، ولا الخطيب من أدب، وهو أحد مفاخر الإسلام، وأمهات البلدان فيها مشايخ أجلة وقراء وأئمة وزهاد وغزاة مهمة" ويقول: كانت بخارى وسمرقند عاصمة العلم، وكانت مثابة المجد وكعبة العلم، مجمع أفراد زمان ومطلع نجوم وموسم فضلاء الدهر، وفي عاصمة محمود الغزنوي في غزنة كانت مكتبات جميلة أدهشت النظار، وكان قصره مجمع الفلاسفة، ومجمع الشعراء، والأدباء الفلاسفة وكان منهم أبو الريحان البيروني سيد علماء العالم

القديم، وأعظم رياضي، نبغ في الإسلام، ومنهم الفردوسي الشاعر، والعتبي الكاتب".

كذلك كانت المدرسة النظامية في بغداد أعظم جامعة في العالم الإسلامي، وقد أنجبت المدرسة أعلاما في علوم مختلفة، ودعاة ومجاهدين وكانت القيادة العلمية في أيدي المسلمين، يستفيد من مدارسهم وعلمائهم رواد العلم من أتباع الأديان المختلفة، والقادمون من بقاع مختلفة للعالم، ومن المدارس الكبرى التي أنشئت خلال القرون الأولى جامع عمرو بن العاص في مصر، وجامع الأزهر في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في مراكش، وهذه الجوامع كانت تجمع بين العبادة والعلم، وكانت قاعدة العلم الأولى في الإسلام.

العلم أساس للتربية الإسلامية، وقد رفع الإسلام مكانة العلم، ووسع دائرته وعممه، ومنح العلماء فضيلة على غير العلماء، كان دور الإسلام في كسب العلم ونشره دوراً مثالياً لأنه أطلق العلم من القيود المفروضة عليه في الأمم الأخرى، فقدكان العلم من خصائص الكهنة لدى المصريين والآشوريين، وكان خاصاً بأبناء الأشراف عند الفرناطيين والرومان كما كان العلم احتكاراً لطبقات خاصة في الديانة الهندوكية، وقد منعت طبقات من كسب العلم، وفرضت عليها قيود، فإذا كسب أحد من رجالها العلم عوقب عليه وكان العقاب شديداً، كذلك

كانت ممارسة الشعائر الدينية والعلم الديني احتكاراً لطبقات خاصة من الناس ونشأت بذلك طبقة الكهنة ورجال العلم والدين، ولكن الإسلام أزال هذه الفوارق وجعل العلم الديني والعلم العام علماً.

كان القرآن الكريم منبع سائر العلوم التي نشأت في العهد المتأخر من تاريخ الإسلام، وكان محوراً لجهود العلماء، فاعتنى قوم بضبط لغته وتحليل كلماته ومعرفة مخارج حروفه، واعتنى علماء برسم للكلمات وتهذيب كتابتها، وشغل علماء آخرون أنفسهم بشواهد القرآن، لأن القرآن كان بلسان عربي مبين، وبذلك نشأت علوم اللغة والبلاغة والنحو والصرف وعلم الأشعار، واعتنى المفسرون بألفاظه ومعانيه ومحتملاته، وفسروا الأحكام والأخبار، واستخرج الأصوليون الأدلة العقلية والشواهد النظرية، تكلمت طائفة من العلماء بأوامر ونواهي والحلال والحرام، واستنبطوا الأحكام، وتوجهت عناية طائفة أخرى إلى منهج القرآن فنقلوا أفكار القرآن، كما بحث رجال ما ورد في القرآن من ذكر البلدان والأماكن والطبيعة والكون وخلق الإنسان، وكانت هذه البحوث نواة لعلوم التاريخ، والجغرافية والطبيعة والنفس والاجتماع، ولا يزال الباحثون في هذه العلوم رغم تقدم العلم يجدون إشارات وتوجيهات إلى علومهم في القرآن.

وفي آخر عهد بني أمية ثم في عهد بني العباس نشأت علوم

مستقلة بذاتها، وتوجهت عناية العلماء إلى مصادر أخرى فتوسعت دائرة العلم، ومن العلوم التي نشأت وشاعت لدى المسلمين علم التفسير والحديث، وعلم القراءة، وعلم الفقه، والنحو واللغة، والبلاغة، وعلم النجوم، والطب، والكيمياء، والتاريخ، والجغرافية، والهندسة، والموسيقي، والفن المعماري، والنحت والرسم، ولجميع هذه العلوم كانت للمسلمين ابتكارات وإبداعات، وقد وسعت بحوث المسلمين في الطبيعة، وألفوا في علم النبات والجماد والخيل والحيوانات البحرية والبرية، والمعادن والفلزات، والأمور والروح وتربية النفس، وصارت هذه الموضوعات إسلامية في الصياغة والعرض.

التفسير

اشتغل العلماء بتفسير القرآن الكريم في مراحل مختلفة، كان اهتمامهم الأول بشرح كلمة أو كلمات وردت في القرآن الكريم، فلما اتسعت الدولة الإسلامية ووجد اختلاط بين العناصر العربية وغير العربية، دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن الكريم، وتقدم بعض كبار الصحابة من العلماء لتفسير القرآن الكريم اعتماداً على ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وصل إليه فهمهم.

كان منهم عبد الله بن عباس، عبد الله بن مسعود، أبي بن كعب، علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، هؤلاء الصحابة هم المؤسسون لمدرسة التفسير الأولى، وحذا حذوهم عدد من

التابعين، وقال مجاهد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا فسر شيئاً رأيت عليه النور، ثم نشأت مدرستان مدرسة كانت تكتفي بالتفسير اعتماداً على المأثور، وهو ما وصل عن النبي صلى لله عليه وسلم وكبار الصحابة، وثانياً التفسير بالمأثور وبما يستفاد من القصص والرأي والعلوم الجديدة، ومن مراجع فهم ألفاظ القرآن الشعر الجاهلي، ولذلك كان حفظ الشعر العربي وصيانته، وقد أثر عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه أمر بالنظر في الشعر العربي لفهم ما تعسر فهمه من القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف، وقد ظل التفسير إلى مدة طويلة جزءاً من الحديث الشريف أو فرعاً من فروعه، وصار علماً مستقلاً في العصر العباسي، ومن المؤلفات التي انفردت في التفسير، كل في لونه، تفسير الطبرى، ومعالم التنزيل للبغوي، والتفسير للبيضاوي، والكشاف للزمخشري، والتفسير للرازي، والجلالين، وكل كتاب من هذه الكتب له سمة تميزه عن غيره، وذكر أحمد أمين أن تفسير القرآن الكريم تأثر بالحركة العلمية في كل عصر، وهي صورة منعكسة لما في العصر من الآراء والنظريات والمذاهب الدينية،[1] وذكر ابن النديم الجوانب التي استرعت اهتمام العلماء للبحث في القرآن الكريم وذكر منها سبعة عشر جانباً.

---

[1] فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين، ص: ٢٠٥ دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٧٥م

وقد ساهم في شرح ألفاظ القرآن الكريم أعلام اللغة العربية في كل عصر، منهم الكسائي والأخفش، وسعيد أبي سعده، الخليل بن أحمد، محمد بن عيسى الثقفي، أبو حاتم والسجستاني، وقطرب النحوي، أبو عبيد الأصمعي، ثعلب والمبرد، الزجاج، ابن قتيبة، محمد بن سلام الجمحي، ابن الأنباري، ابن دريد، ولجميع هؤلاء الأعلام مؤلفات في حل مشكلات القرآن الكريم والغريب منه. وبحث مواضع الإعجاز والجمال الأدبي، وجميع هؤلاء الأعلام حجة ثقة في اللغة والأدب والنحو والبلاغة، وألف عدد من العلماء في بيان إعجاز القرآن الكريم بصورة مستقلة، وفي مقدمتهم الباقلاني، الرماني، الخطابي، ومؤلفاتهم تعد رائدة في البحث في إعجاز القرآن، كما ألف العلماء في القراءات، والرسم، واختلاف المسائل والفضائل، والأحكام، فكان التأليف في العلوم المتصلة بالقرآن الكريم في طليعة حركة التعليم والتأليف ومصدراً لعلوم مختلفة.

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز ممن اهتم بتدريس الحديث، فأمر مالك بن أنس بوضع كتاب جامع، فألف الإمام مالك كتابه المعروف" الموطأ"، ثم عكف العلماء على تحصيل الحديث وتدوينه، وشاع هذا العلم وراجت بضاعته، ونال إقبالاً عظيماً، واندس بين رجاله من لم يكن له ثقة، أو كان مشبوهاً، فشمر أئمة الحديث عن ساق الجد،

وكشفوا الزيف، كان منهم إسحاق بن راهويه، المتوفى ٢٣٨هـ وقام أئمة الحديث بالنقد والتمحيص، والرواة بالجرح والتعديل، وتشعب هذا العلم إلى علوم متعددة الجوانب، ومن الكتب المؤلفة المعروفة في الحديث كتب الصحاح الستة التي لا تزال موضع الدراسة.

ومن الذين عرفوا ببحوثهم في الحديث و رواية الحديث، يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وهما من رجال القرن الثاني، وقد وثق الناس بهما، فمن عدلاه عدل ومن جرحاه جرح، وجاء بعدهما يحيى بن معين وللإمام البخاري في هذا الباب كتابه المعروف على ترتيب حروف المعجم، وهو كتاب تاريخ البخاري، وألف الناس في مواضع الحديث التي تتعلق بشرح الحديث كما ألفوا في شرح القرآن الكريم، كغريب الحديث لابن الأثير الجزري، كما ألف علماء كتباً في تطبيق الأحاديث المتعارضة ظاهراً، واستخراج العلوم والأحكام من الحديث، وكانت دراسة الحديث عوناً في مجالات متعددة كالأدب واللغة والتاريخ والجغرافية والتربية والنفس والاجتماع، كما كانت دراسات الحديث عوناً في تنمية الذوق الأدبي، لأن أسلوب الحديث النبوي أجود وأفصح وأجمع بعد القرآن الكريم، ويشتمل الحديث على ثروة غنية من الألفاظ والتعبيرات الأدبية.

علم الفقه

كانت نشأة هذا العلم في صدر الإسلام، وتدوينه وتنقيحه في عصر بني العباس، كانت المدينة المنورة مسكن الفقهاء ومقر المحدثين في صدر الإسلام، فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه والحديث، ونشأت منهما جماعات كان منهجها منهج الحجازيين، قد كان أهل الحجاز يعتنون بالرواية والتمسك الشديد بالحديث وبناء الأحكام على النصوص.

أما فقهاء العراق فكانوا متشددين في الرواية ومالوا إلى القياس والاستنباط، كان زعيم المدرسة الأولى مالك بن أنس (٩٦-١٧٩هـ) وزعيم المدرسة الثانية أبو حنيفة نعمان بن ثابت(٨٠-١٥٠هـ)، ثم جاء محمد بن إدريس الشافعي(١٥٠-٢٠٤هـ)، وهو أحد أتباع مالك بن أنس، ثم انتقل إلى العراق وأخذ مسائل الفقه وانفرد بمذهب بين المذهبين، ثم نبغ أحمد بن حنبل(١٦٤-٢٤١هـ)، اقتبس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية وانفرد بمذهب آخر، هذه هي المذاهب الأربعة التي قامت على أساس واحد ووقف عندها الاجتهاد، ثم جاء جيل من العلماء الذين شرحوا متون كتب هذا العلم ووسعوها وفرعوا المسائل الأساسية.

العلوم الأدبية

اهتم العلماء في فجر الإسلام بجمع اللغة العربية وصيانتها عن القبائل المختلفة في البادية، وقاموا بشرحها لتيسير

فهم القرآن، واستجلاء غامض الكتاب، وإيضاح غريب السنة، وكانت اللغة في القرن الأول تؤخذ من الأفواه، وتحفظ في الصدور، وتضرب إلى مظانها أكباد الإبل.

وقد قضى الباحثون في اللغة أعمارهم في البادية لتحقيق اللغة، ومن رواد هؤلاء العلماء حماد الراوية المتوفى ١٥٦هـ، والخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى ١٥٧هـ، وخلف الأحمر المتوفى ١٨٠هـ /٧٩٦م، وأبو عبيدة المتوفى ٢٠٩هـ، وأبو زيد الأنصاري المتوفى ٢١٥هـ، والأصمعي المتوفى ٢١٦هـ.

وظل الشأن في رواية الأدب السماع والحفظ حتى مست الحاجة إلى التدوين، وأخذ العلماء يدونون ما سمعوا، ومن المؤلفين الأولين أبو عبيدة،والأصمعي، والخليل، والجاحظ، وابن قتيبة،والمبرد، وابن عبد ربه، وأبو علي القالي، وأبو الفرج الأصفهاني، هؤلاء هم رجال الأدب، وكتبهم مراجع.

علم اللغة

فسدت ملكة اللسان وظهرت آثار الفساد في أوائل القرن الثاني للاختلاط بالأعاجم، فخافوا فساد اللغة، وصرفوا عنايتهم إلى تعيين مواضع الاستعمال للألفاظ، وحفظ المفردات، فألفوا كتباً في الألفاظ الخاصة بموضوعات خاصة، كالإنسان وما يحتاج إليه في حياته، والجمل والخيل والنبات والحرب.

ولما جاء الخليل بن أحمد وضع كتابه "كتاب العين" ورتبه حسب مخارج الحروف، ثم جاء أبو بكر بن دريد، وألف

كتابه "كتاب الجمهرة" والأزهري وسمى كتابه "كتاب التهذيب" ثم وضع الجوهري كتاب "الصحاح"، وألف ابن سيده من الأندلسيين كتاب "المحكم" وألف ابن فارس كتاب "المجمل" وهذه هي أصول المعجمات.

فلما جاء المتأخرون لخصوا هذه الكتب ونوهوا ما دونت فيها، وظهرت مؤلفات التكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس المحيط، ومن الكتب المؤلفة في الموضوع غير هذه الكتب التي نالت القبول والإعجاب كتاب فقه اللغة للثعالبي قرن فيها الوضع والاستعمال وبين الفروق بين الكلمات، وكتاب أساس البلاغة للزمخشري.

البيان

أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة (٢٠٦هـ) ثم جاء الجاحظ(م٢٥٥هـ) وكشف بعض خصائص البيان في كتابه "البيان والتبيين" وحذا حذوه قدامة بن جعفر، وأبو بكر بن دريد، وأبو هلال العسكري(م٣٩٥هـ)، ولكن لم يتناولوه كعلم خاص، ويرجع الفضل في وضع هذا الفن إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١هـ صاحب "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" والإمام أبي يعقوب السكاكي، وبجهودهما صار البيان علماً مستقلاً، وساهم في هذا العلم أيضاً عبد الله بن المعتز.

النحو

توجهت عناية العلماء إلى وضع قواعد اللغة بسبب

اختلاط القبائل والأمم المختلفة وبشيوع اللحن والانحراف عن منهج العرب الأولين، أول من وضع أصول القواعد أبو الأسود الدولي المتوفى عام ٦٧هـ، ويقال أنه فعل ذلك بتوجيه سيدنا علي رضي الله عنه، ثم وضع هذا العلم ابن إسحاق الحضرمي، وهارون بن موسى، وكان عيسى بن عمر أول من ألف في هذا العلم، وشاع هذا العلم في البصرة، وأخذ الكوفيون هذا العلم، ونشأت مدرستان، مدرسة الكوفة والبصرة، وكان زعيم الكوفيين الكسائي، وكان البصريون يقفون عند السماع، ولايرون القياس إلا في حالة خاصة، وكانوا متشددين في الرواية، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء، أما الكوفيون فلاختلاطهم بلأعاجم وعرب الحاضرة مالوا إلى القياس، وكان العباسيون يؤثرون الكوفيين، ثم نشأ مذهب خليط بين المذهبين، وعرف بمذهب البغداديين.

وانتقل هذا العلم إلى الأندلس، واختلف علماء الأندلس في بعض المسائل، وساد المذهب البصري، واضحمل المذهب الكوفي في القرن الرابع، واقتصر العلماء منه على ذكر الخلاف، ثم وجد طائفة من النحويين الذين جعلوا هذا العلم فلسفة.

التاريخ

كان التاريخ في الجاهلية هو علم الأخبار والأيام والوقائع للعرب، ثم اطلع العرب على بعض أخبار الأمم المجاورة، وحفظوا هذه الأخبار، وتصدع سد مأرب، وعام

الفيل، ومعركة ذي قار، أخبار اليهود والنصارى، ثم توسع هذا العلم في الإسلام، فقد بين القرآن الكريم أخباراً للأمم القديمة، وكان ذلك مدداً للتاريخ، فلما اتصل المسلمون بالأمم الأخرى عرفوا أخبارهم، ودرسوا بلادهم، وتوسعت آفاقهم، ونشأت جماعة تهتم بالأخبار والوقائع، وكان معاوية رضي الله عنه يهتم كثيراً بسماع الأخبار ويحدد يوماً لها، وزادت مع الزمن مادة التاريخ، أضيف إلى التاريخ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله وأقواله، ثم أخبار الراشدين، وذكر الفتوح والغزوات، وأخبار الأمم المفتوحة، ثم أخبار الفرق والمذاهب وأخبار العلماء والزهاد والأمراء والشعراء والفنانين والقادة، فلما بدأ عصر التدوين، اقتبس كتاب من الكتب التاريخية والآداب الأجنبية، واهتموا بتسجيل الأحداث بترتيب زمني، تنقسم الكتب التاريخية إلى الأقسام الآتية: السيرة والطبقات، المغازي، تاريخ البلدان، التراجم، التاريخ العام.

ومن أشهر كتب الطبقات طبقات الصحابة للواقدي المتوفى عام ٢٠٧هـ، وطبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي المتوفى ٢٣٢هـ، وطبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة، ومن كتب المغازي فتوح الشام للواقدي وفتوح البلدان للبلاذري، ومن كتب تاريخ البلدان تاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ بغداد لأبي بكر أحمد الخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٣هـ، والخطط للمقريزي المتوفى ٨٤٥هـ، ونفخ الطيب

للمقري، ومن كتب التراجم للأعيان والمشاهير معجم الأدباء لياقوت الحموي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وبغية الوعاة، ومن كتب التاريخ العام تاريخ ابن جرير الطبري، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، وتجارب الأمم لابن مسكويه، والآثار الباقية لأبي الريحان البيروني، والكامل لابن الأثير الجزري، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، والمختصر لأبي الفداء.

الجغرافية

كان ابن خرداذبه(م٢٣٢هـ) أقدم جغرافي في المسلمين، ألف كتاب "المسالك والممالك" وهو أقدم كتاب في الجغرافية في اللغة العربية، واليعقوبي صاحب كتاب البلدان، والهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب، والمسعودي صاحب كتاب مروج الذهب، وهو رحالة قام بزيارات في مختلف أرجاء العالم، وجمع معلومات بعد مشاهداته، والاصطخرى صاحب كتاب المسالك والممالك، والشريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والبلدان والجزائر والمدائن، ألفه عام ١٥٤هـ، ونقل كتابه إلى اللغات الأوربية، وتعلمت منه أوربا علم الجغرافية في القرون الوسطى، وياقوت الحموي(م٦٢٦هـ) صاحب كتاب "معجم البلدان"، وذكر أبو الفداء وهو من رجال القرن الثامن للهجرة، أسماء ستين من علماء الجغرافية لهم مؤلفات في اللغة العربية، وابن هوقل (م ٣٨٠هـ) صاحب

كتاب "المسالك والممالك والمفاوز والمهالك" والمقدسي (م ٣٨٠هـ) صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم".

الفن والتصوير

عرف العرب قبل الإسلام قدراً ضئيلاً من النقش والنحت والتصوير، وقد كان هذا الفن شائعاً في بلاد الروم والفرس والهند، وقد اكتشف بعض التماثيل والنقوش على الخشب والحجر، التي تحمل تخيلاً أو تصوراً أو منظراً في مناظر الطبيعة لدى الأشوريين واليمنيين والعرب القدماء، وأشار إليها القرآن الكريم ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ يسجلون بعض صورهم الخيالية، ولكن هذا الفن كان يتطور تطوراً كبيراً في البلاد غير العربية كما كانت هذه الأمم تقوم بنقش أو تصوير المناظر على الأواني للشرب والطعام، والموائد والستائر والسقوف، والمحاريب وتصنع التماثيل للأبطال والآلهة، ورجال الفن، والرياضيين، وقد وجد هذا الفن بصورة خاصة لدى الفراعنة في مصر، ولم تتوفر الظروف لمثل هذا الفن في الحياة العربية، وما وجد لديهم من مظاهر هذا الفن كان مستورداً من الخارج.

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصوير ذوات الروح، فلما دخل المسلمون في عصر الحضارة، وعرفوا ما يتوفر لدى الأمم الأخرى من آيات الفن والتصوير والنقش واقتبسوا هذه المحاسن الفنية بتغيير يلائم الذوق العربي الإسلامي.

وفي عصر الحضارة المتأخرة من الحضارة الإسلامية دخل

تصوير للأحياء المترفين ورجال الحكم والمجد في الشعر العربي في القرن الثاني والثالث وصفا للقصور والمتنزهات ولا نجد ذكر صور الأحياء ولكننا نجد في شعر الشعراء المتأخرين ذكر الصور المأخوذة من حياة الغابة كالأسود والطيور والثعالب والقطط والنمور والفهود في البرك والأحواض وقاعات القصور الملكية، وقبل اختيار التصوير لذوات الحياة، كان العرب يكتفون بتزيين الخشب والأواني والحجر المستعمل في أثاث البيت للمناظر الطبيعية.

كانت هناك مدارس عديدة للتعبير الفني في البناء وهي المدرسة العراقية، والمدرسة الإيرانية، والمدرسة العثمانية، والمدرسة الصفوية، والمدرسة الهندية، والمدرسة الأندلسية، ولكل مدرسة من هذه المدارس لون خاص وطابع فني خاص.

وعن الفن الإسلامي أخذت أوربا كثيراً من فن النقش والزخرفة وصناعة السجاجيد وعن عرب صقلية وإسبانيا تأثرت الحضارة الأوربية بالحضارة الإسلامية في الثقافة والفن وفي نظم الحكم وفي الحياة الاجتماعية، ويظهر أثر التراث الإسلامي جليا واضحاً في الحضارة الأوربية وبذلك يبطل هذا الاعتقاد بأن الغرب أسبق من الشرق في تطور الفكر البشري وفي رقي الحضارة الإنسانية.

الفلسفة والكلام

لم تكن للعرب فلسفة قبل الإسلام، وإنما كانوا غير متفلسفين في الحياة، لأن طبيعة البلاد كانت تتطلب الكفاح المرير

في سبيل الحياة، فتعودوا على الخشونة في المعيشة، والسطحية في الفكر، يتعلقون بالمشاهدة أكثر من اعتمادهم على الفكر، وقد غير هذه الطبيعة الإسلام الذي دعا إلى التفكير والتدبر والتأمل ودراسة الحياة والكون والطبيعة لمعرفة آيات الله وتدبرها، وشرح القرآن الكريم هذه الآيات وبين كيف خلق الإنسان وكيف خلق الكون، وبين خصائص الأشياء، وما سخره الله تعالى للإنسان، بحث طبيعة الإنسان وما يتصف به من ميول وانفعال ومن قدرات للاستفادة مما آتاه الله تعالى من نعم ومواهب ثم ذكر أخبار وبيّن الأمم الخالية ونموها وسقوطها، وخصائص الأعمال وعواقبها، وذكر هناك أشياء كثيرة لا يعلمها الإنسان، وقال ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] وقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، وكان من طبيعة المسلم الازدياد في العلم، وحث الإسلام على البحث وعلى كشف الحكمة، ووصف الحكمة بأنها ضالة المسلم، فوجدت في المسلمين رغبة في تطوير الحياة، والتعرف عن العلوم الكونية وتوسيع المعرفة من كل مصدر، والاغتراف من كل منهل، ودخل أطباء وعلماء من الأمم الأخرى في الإسلام، وحملوا معهم تراثهم العقلي، فأقبل المسلمون على دراسة هذه الكتب والأفكار، وقاموا بنقلها

إلى لغتهم، منها الكتب عن الفلسفة الإغريقية والهندية والفارسية والأفلاطونية الحديثة، ونقلت هذه الكتب من اللغات الأصلية إلى اللغة العربية، واشتغل الناس بأبحاثها، وطغت العقلانية، فوجد جيل يشك في الأساس العقلي للدين، ويعتدي على الدين عقلياً، فنشأت طبقة من العلماء ودرست الفلسفة، وشرحت الدين عقلياً في ضوئه وآراء الفلسفة، وهؤلاء العلماء عرفوا بالمتكلمين.

علم الكلام

انتقلت الكتب الفلسفية وترجمت آراء ومذاهب الحكماء من اليونان وفارس والهند إلى العربية في العصر العباسي الأول، وانتشرت هذه المباحث العقلية وسيطرت على عقلية الناس، وعكف الناس على دراستها، وبدأت تناقش في المجالس العامة، وكثر البحث والجدال، واستغل أعداء الإسلام الذين انهزموا في الميدان العسكري حرية الرأي التي منحها العباسيون، وحاولوا الانتقام في الميدان العقلي والعلمي، ونشروا أفكارهم، وتحدى هؤلاء العلماء العقلانيون الإسلام، وانتقدوا معتقدات الإسلام علمياً وعقلياً، وأشاعوا أن الإسلام دين ليس له سند عقلي، وحمل المسلمون الفرس والروم بعض آراء فلاسفتهم العقلية، وأثاروا البحث والجدال، وبحثوا عن التأويل العقلي لبعض المعتقدات الإسلامية، فقد كانت بعض النصوص الدينية تقبل وجهين أو تحمل تأويلاً عقلياً كمسائل القدر والجبر و جزاء

الأعمال والإيمان بالكفر والعذاب، والجنة والنار، وفسر العلماء هذه المباحث حسب طبائعهم المختلفة، والطرق كانت تتعارض أحياناً فيما بينهم، ووقع الناس عرضة للشك والريبة، فتقدم علماء الإسلام لمواجهة هذا الخطر، ودرسوا الفلسفة للرد على الهجوم على الإسلام بالأدلة العقلية، وحاربوا أعداء الإسلام بسلاح العلم، ونشأت فرق نتيجة للتأويل العقلي، وكان البحث يدور أحياناً بين المسلمين وغير المسلمين وبين فرق المسلمين داخلية، وهذه المباحث العقلية لإثبات الدين بالأدلة العقلية تسمى علم الكلام.

تسمية علم الكلام

وفي تسمية هذا العلم بعلم الكلام يقول الشهرستاني في الملل والنحل: سبب تسمية هذا العلم بعلم الكلام، انه علم يبحث الكلام، كانت أولاً نشأته للرد على الفلسفة، كان أحد أقسام الفلسفة، "المنطق" وهو الطرف للكلام، تسمى هذا العلم بعلم الكلام وكان المحدثون يعارضون هذا العلم بقوة في البداية وبعضهم كفره.

أول من دوّن علم الكلام

وأول من صنف علم الكلام أبو الهذيل العلاف في عام ١٣١هـ ووسع هذا العلم إبراهيم بن سيار النظام، بلغ اشتغال النظام بالفلسفة أنه كان يحفظ كتاباً لأرسطو، ومن تلاميذ النظام الجاحظ.

وكان ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم الكلام الذي اقتصر على مناقشة بين المذاهب الإسلامية والفرق الإسلامية.

والثاني: علم الكلام الذي كان هدفه الفلسفة، وقد كان علم الكلام والفلسفة منفصلين إلى عهد الإمام الغزالي، جمعهما الإمام الغزالي، وجعلهما كعلم موحد الإمام الرازي، ثم اختلط الطريقان في عهد المتأخرين، والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلاسفة بحيث لا يميز أحد الفنين عن الآخر، كما فعل الإمام البيضاوي، ومن جاء بعده من علماء العجم في تأليفاتهم.

الفرق

اشتد الخصام في العصر العباسي الأول في تفسير وشرح بعض المصطلحات والنصوص، ونشأت مسائل عقائدية، ونشأت فرق كثيرة، ومن الفرق الأولى التي تشعبت إلى فرق فرعية كثيرة فيما بعد، الشيعة، السنة، المعتزلة، الخوارج، المرجئة، الجبرية، وذكر العلامة المقريزي خمس فرق: أهل السنة والشيعة والمعتزلة والخارجية والمرجئة، وذكر العلامة الشهرستاني النقط التي صار عليها الاختلاف كما يلي:

إثبات صفات الله ونفيها، القدر والجبر، العقائد والأعمال، والعقل والنقل، ويقول المسعودي: كان المهدي أول من أمر الجويني بتصنيف الكتب على الملحدين، وفي عهد المأمون عكف المعتزلة على دراسة كتب الفلسفة، وشاع الاحتجاج

بالعقل والعلم، وشجع الخلفاء المتكلمين والفلاسفة ورجحوهم على علماء الدين الذين كانوا يستندون إلى النقل كلياً.

المعتزلة

كان المعتزلة الذين يتزعمون علم الكلام رغم إفراطهم في تمجيد العقل وتحكيم الفلسفة في الدين، مدافعين عن الإسلام، كانت طبيعتهم دينية، وتفكيرهم دينياً، وكانوا في حياتهم متقشفين، يؤمنون بالنبوءة والوحي، ويلتزمون العبادات، لكنهم أسرفوا في تمجيد العقل والإيمان بقوته، وأفرطوا في الاستعانة بالعقل في فهم الدين، وحكموه في أمور هي ما وراء العقل، فكانوا يثيرون أدق المسائل، ويتعرضون لحلها، ويؤولون القرآن على مقتضاها، ويقيسون الغائب على الشاهد، وقاموا بتطبيق المصطلحات العقلية والفلسفية على المفاهيم الدينية، وفتح بذلك باب لفساد عظيم في المجتمع الإسلامي، وصار الدين اليسير المطابق للفطرة رموزاً وفلسفة، وثارت الشكوك والشبهات، واتجه الناس إلى التأويل العقلي، وضعفت العاطفة والروح، فلما ازداد نفوذ المعتزلة وتوغلوا إلى الحكومة الإسلامية أرادوا فرض عقليتهم على المجتمع قسوة، وساعد المأمون على نشر نفوذ المعتزلة، فأدخلت المسائل الدينية في شؤون الدولة.

ومن أجل هذا الإكراه على قبول أفكار المعتزلة ثارت الفتن، وفي مقدمتها فتنة خلق القرآن التي امتحن فيها الإمام

أحمد بن حنبل، وكان المعتصم والواثق من المؤيدين المتشددين لحركة الاعتزال، فلما جاء المتوكل نكل عن المعتزلة وأقصاهم من مناصب الحكومة، وانكمش نفوذهم السياسي إلا أن نفوذهم العلمي ظل ينمو، وكثرت المجالس والمناظرات بين المعتزلة والمحدثين، وكان الناس يؤخذون بذكاء المعتزلة وتطبيقهم في المسائل الكلامية.

الأشاعرة والردّ على المعتزلة والفلاسفة

وقيض الله للردّ على الاعتزال الذي كان خطراً على فكر السلف الإمام أبا الحسن الأشعري الذي ولد في البصرة وحمل أولاً راية الاعتزال، ثم سار على مذهب الاعتزال، أعلن البراءة عن الاعتزال وردّ على المعتزلة، وقد كان يعتقد أن المباحث التي تتصل بالعقليات والحسيات لا صلة لها في الحقيقة بالعقيدة والدين، وألف الإمام الأشعري في الدفاع عن السنة وشرح العقيدة، وقيل: إن مؤلفاته تبلغ ثلاثة مائة مؤلف وهي تدور حول الرد على المعتزلة والرد على الفلسفة والطبيعيين والدهريين واليهود والنصارى والمجوس وكانت وفاته في عام ٣٢٤هـ.

ومن المؤلفين الآخرين الذين دافعوا عن العقيدة الصحيحة الإمام أبو منصور الماتريدي المتوفى ٢٣٣هـ، وأقبل على علم الكلام، نقحه عن الشوائب وهذبه وهو مؤلف كبير له مؤلفات في الرد على الرافضة.

ومن المؤلفين الآخرين في هذه السلسلة القاضي أبو بكر

الباقلاني المتوفى ٤٠٣هـ والشيخ أبو إسحاق الإسفرائني المتوفى ٤٧٨هـ.

الباطنية

نشأت لغلبة التأويل العقلي والشغف الزائد بالفلسفة فتنة أخرى، كانت أخطر وأضر على الإسلام وتعاليم النبوة من الفلسفة وهي فتنة الباطنية، كان معظم دعاتها من البلاد التي فقدت سيادتها وحكمها في تيار الفتوح الإسلامية، وكان ينتمي إليها رجال يدينون بالشهوات واللذات، ويؤمنون بالإباحة، فتستروا في لباس التأويل العقلي للنصوص الدينية وتفسيرها تفسيراً يختلف عن تفسير السلف، وقطعوا صلة المعاني بالألفاظ وقالوا: إن لكل لفظ معنى، ظاهراً وباطناً، الباطن هو اللب، وأن كل ما ورد من المصطلحات رموز لا يعرف معناها إلا الأئمة فقالوا مثلا: الغسل معناه تجديد العهد، الصلاة دعاء، الزكاة نشر العلوم لمن يتزكى لها، والصوم كتمان العلم، والحج طلب العلم، وادعى الباطنية أن الأئمة يقدرون على تعطيل ظاهر الشريعة ونسخها، وكانت الباطنية مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية، واستخدموا المصطلحات اليونانية وأفكارها بأدبهم وشرح عقيدتهم، وتصدى الإمام الغزالي على الرد على الباطنية وله عدة مؤلفات، ثم تصدى شيخ الإسلام ابن تيمية بلغة عصره وأسلوبه المميز وقام بالجهاد العقلي لتطهير الإسلام من الغزو العقلي.

إخوان الصفا

قامت في العراق في أوساط القرن الرابع للهجرة نتيجة للاضطراب الفكري والسياسي جماعة سرية تجمع فرعاً من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطلة تسمى بإخوان الصفا، كان أصحابها متأثرين بالأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية الحديثة، وأرادت هذه الجماعة أن تضع مذهباً جديداً، فوضعت مذهباً كان أربابها يؤمنون بمبدأ الجمع بين الفلسفة اليونانية والشريعة، وصنفوا خمسين رسالة، وسموها برسائل إخوان الصفا.

علم التصوف

المقصود من التصوف العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية.

إن مجاهدة النفس والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم، والسبب في هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه وأعان عليه الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح.

إن هذا الكشف يعرف لأهل المجاهدة فيدركون من الحقائق الوجوه ما لا يدركه سواهم، للتعبير عن هذه المدركات استعملوا مصطلحات وبينوا الأصول والطرق والمقامات والأحوال الطارئة في طريق السلوك، كما بينوا أحوال الناس ومدارجهم العقلية والنفسية يستفيد بها رجال التربية والسلوك وباختلافهم في المناهج اختلفت الطرق، ودونت كتب في هذا الموضوع، ونشأ بذلك علم.

ومن الطرق المعروفة الطريقة القادرية للسيد الإمام عبد القادر الجيلاني، والطريقة السهروردية للشيخ شهاب الدين السهروردي، والطريقة الجشتية للشيخ معين الدين السجزي (م٦٢٩هـ) والطريقة النقشبندية للشيخ بهاء الدين محمد نقشبند البخاري، والكبروية للشيخ نجم الدين كبرى البغدادي، والمدارية للشيخ بديع الدين المدار، والقلندرية للشيخ قطب الدين الجونفوري، والشطارية للشيخ عبد الله الشطار الخراساني، والعيدروسية للشيخ عفيف الدين عبد الله العيدروس الكبير الخضرمي.

انشعبت من تلك الطرق طرق أخرى كالصابرية والنظامية من الطريقة الجشتية، والمجددية والأحسنية والعلائية من الطريقة النقشبندية.

ومن الكتب المؤلفة في الموضوع فصوص الحكم للشيخ محي الدين ابن عربي، وعوارف المعارف للشيخ شهاب الدين

السهروردي، والرسالة المكية للشيخ قطب الدين الدمشقي، وآداب المريدين للشيخ ضياء الدين السهروردي، والرسالة القشيرية للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري، واللمعات للشيخ فريد الدين العراقي.

ومن كتب التربية والسلوك، المثنوي المعنوي للعارف الرومي.

نقل كتب الفلاسفة إلى اللغة العربية

كان موقف المسلمين إزاء الفلسفة موقف النقل أولاً، ثم الشرح والتعليق، ثم تهذيب هذه الفلسفة ونقدها، وكانت الفلسفة انتقالية في طابعها، نقل أولاً ما لدى الإغريق والفرس من أفكار ونظريات، ثم بذل المسلمون جهودهم للتوفيق بين الفلسفة والدين، ونقلت الفلسفة إلى طور جديد.

يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في الثقافة الإسلامية في الهند:

"كان لهذه العلوم شأن عظيم في أرض اليونان، واختص فيها المشاؤون منها وأصحاب الذوق، واتصل سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم إلى سقراط ثم إلى تلميذه أفلاطون، ثم إلى تلميذه أرسطو ثم إلى تلميذه اسكندر الفردوسي، وكان أرسطو أرسخهم في هذه العلوم وهو أول من دوّن المنطق، ولذلك سمي المعلم الأول.

وانقرض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة وتنصروا،

هجروا تلك العلوم، وأغلقت خزائن كتبهم فلما جاء الإسلام وظهر أهله عليهم انتقلت هذه الخزائن إليهم، وكان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، له همة ومحبة للعلوم وخطر بباله الصنعة، وبأمره بدأ نقل الكتب من اليونانية إلى العربية.

ثم كتب أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بالكتب الحكمية فبعث إليه بعض كتب الطبيعيات، وقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها، وكان المأمون أشد رغبة فأوفد الرسل إلى ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين ونقل هذه الكتب إلى العربية علماء من المسيحيين والمسلمين، كان منهم حنين بن إسحاق، وثابت بن قرة، وإبراهيم بن الصلت، ونقل عبد الله بن المقفع من الفارسية إلى العربية علوم الفرس.

وكانت هذه التراجم متفاوتة مختلفة، فطلب منصور بن نوح الساماني من أبي نصر الفارابي بأن يحررها ويلخصها ففعل كما أراد ولهذا لقب بالمعلم الثاني ويليه في المرتبة أبو علي الحسين ابن سينا وأبو الوليد ابن رشد، وأبو بكر بن الصافح فقد بلغوا الغاية في هذه العلوم، وممن يلي هؤلاء في معركة الحكمة، شهاب الدين المقتول، وفخر الدين الرازي، ونصير الدين الطوسي، وقطب الدين الشيرازي، وجلال الدين الدواني، والفاضل مرزا جان، والسيد محمد زاهد الهروي، والعلامة محمود بن محمد الجونفوري، والقاضي محب الله البهاري، والشيخ ولي الله الدهلوي، والشيخ نظام الدين السهالوي، وملا حسن

اللكهنوي، والقاضي مبارك بن دائم الكوباموي، وحمد الله بن شكر الله السنديلوي، والشيخ فضل حق الخيرآبادي[1].

١-حنين بن إسحاق رائد الترجمة والنقل

أبوحنين بن إسحاق ولد سنة ١٩٤هـ، من أب عربي في قبيلة عباد التي تسكن الحيرة، وكان أبوه نصرانياً نسطوريا، بدأ حنين يدرس على يوحنا بن ماسويه أولاً، ثم طرده أستاذه النصراني لكثرة سؤاله، وإلحاحه على السؤال، فذهب حنين إلى بلاد الروم، وأجاد تعلم اليونانية، ثم عاد إلى البصرة، ولازم الخليل بن أحمد، يأخذ عنه العربية، وأجاد حنين أربع لغات الفارسية واليونانية والعربية والسريانية، اتصل بالمأمون، وعين في بيت الحكمة، وأخذ يترجم من اليونانية إلى السريانية، ثم إلى العربية، وترجم للمعتصم والواثق والمتوكل، ثم رحل إلى نواحي العراق والشام، والإسكندرية وبلاد الروم، يجمع الكتب النادرة، ومات ٢٦٤هـ بعد أن عمر سبعين عاماً، وبذل فيها من الجهد العلمي ما لا يستطيع غيره أن ينهض به في مآت السنين.

وأنجب حنين تلاميذ مترجمين فكان بذلك رائد الحركة العلمية، له كتب في الطب والمنطق والطبيعة والهيئة، وكان نابغاً في الطب، والفلسفة، وعلم الحساب، والمنطق، والهندسة وعلم النجوم.

---

[1] الثقافة الإسلامية في الهند للعلامة عبد الحي الحسني، ص: ٢٦٢-٢٦٥

١-الكندي:

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي من قبيلة كندة اليمنية التي ينسب إليها إمرؤ القيس الشاعر، وهو عربي الجنس، ولذلك سمي فيلسوف العرب، وقال ابن النديم: فاضل دهره، وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، وكتبه في علوم مختلفة، مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والإرثماطيقي، والموسيقي والنجوم.

وجدت الفلسفة اليونانية قبل الكندي، فقد عرف منطق أرسطو بين المسلمين من عهد عبد الله بن المقفع، وتسربت مسائل الفلسفة اللاهوتية من النصارى النساطرة واطلع بعض متقدمي المعتزلة كالنظام والعلاف على كتب الفلسفة، وترجمت كتب كثيرة في عهد المأمون وبعده، ولكن أول من اشتغل من المسلمين بالفلسفة كنظام كلي، وهضم قدراً صالحاً من الفلسفة، واستحق أن يلقب فيلسوفاً في الإسلام هو هذا الكندي على حين أن الكلام كان قد نضج قبل ذلك وتكون.

نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد، واشتهر فيما بعد مترجم الكتب اليونانية إلى العربية وتنقيح ما ترجم غيره من المترجمين، وتأثر بآراء المعتزلة، ومن أشهر تلاميذه أحمد محمد الطيب السرخسي المتوفى ٢٨٦هـ ومن تلاميذ الكندي أيضاً أبو معشر البلخي المنجم.

٢- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي:

من أشهر أطباء الإسلام وفلاسفتهم، ولد في الري، درس الرياضيات، والطب، والفلك، والفلسفة، والمنطق، والأدب، دبر البيمارستان في الري، ثم في بغداد، له مصنفات طبية، ترجم عدد منها إلى اللاتينية، وظلت حتى القرن السابع العشر من المراجع الهامة في الطب منها: برء الساعة، والحاوي، أكبر موسوعة طبية عربية، والجدري والحصبة من أفضل كتب الطب القديم، وله رسائل وكتب عديدة ولقب بجالينوس العرب توفي سنة ٣١١هـ.

٣-الفارابي:

أبو نصر محمد بن محمد[1] ولد في فاراب تركستان في ٢٦٠هـ، كان أبوه في جند محمد نوح، وعكف الفارابي على دراسة العلوم والفنون المتداولة في عصره، وتعلم لغات كثيرة، وكان يدعى أنه تعلم سبعين لغة، وتعلم اللغة العربية في بغداد، ثم درس العلوم العقلية، وكان قد أودع لديه أحد أصدقائه كتب أرسطو فأعجب بها الفارابي وطالعها وأتقنها، وبلغ إعجابه بكتب أرسطو أنه كان يعيد قراءتها، وقال عن بعض الكتب أنه قرأها أربعين مرة وأنه لا يزال في حاجة إلى العودة إلى قراءتها

---

[1] اتصل بسيف الدولة فأكرمه سيف الدولة وقرّبه إليه وتوفي الفارابي وكان قد تزهد في آخر عمره في ٣٣٩هـ في دمشق وله أكثر مائة كتاب في النصوص، وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، وآراء أهل المدينة الفاضلة، والمدخل إلى صناعة الموسيقي والآداب الملوكية، ومبادئ الموجودات، ويقال أن الآلة الموسيقية "القانون" من وضعه.

وكتب على نسخة من كتاب النفس لأرسطو أنه قرأها مائة مرة، ولم يكتف الفارابي بكتب أرسطو، بل درس فلاسفة اليونان الآخرين، وسافر إلى حران، ثم إلى بغداد ودرس كتب النحو على ابن السراج توفي سنة ٣٣٩هـ.

٤- أبو علي سينا

أبو علي الحسين بن عبد الله بن حسن بن سينا، ولد في بخارى في عام ٣٧٠هـ، صاحب التصانيف في الطب والمنطق، والطبيعيات، والإلهيات، ونشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد وناظر العلماء، واتسعت شهرته وتقلد الوزارة في همدان.

قال ابن تيمية: تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات والنبويات والمعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه ولا وصلت إليها عقولهم ولا بلغتها علومهم، وقال ابن قيم الجوزية: كان ابن سينا وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين.

صنف نحو مائة كتاب ونظم الشعر الفلسفي ودرس اللغة، أشهر كتبه "القانون" في الطب، نقل إلى لغات أوربا، وكان الأوربيون يتعلمونه في مدارسهم ومن تصانيفه "الشفاء في الحكمة" و"السياسة" و"أسرار الحكمة المشرقية" و"رسالة حي بن يقظان" وهي غير رسالة ابن الطفيل المسماة بنفس الاسم، وأسباب حدوث الحروف، وكتاب في اللغة والنبات والحيوانات، توفي في ٤٢٨هـ في همدان.

٥- البيروني

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ولد في خوارزم في ٣٦٢ هـ، أحد الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين في الصناعة الطبية وعلم الهندسة والهيئة والنجوم، وحكمة الهنود، كان معاصرا للشيخ الرئيس ابن سينا، وبينهما مباحثات ومراسلات.

دخل البيروني الهند، وسكن بها عدة سنين، وتعلم من حكمائها فنونهم وعلومهم، ولم يكن له في زمانه نظير، ولا كان أحذق منه في علم الفلك.

له من الكتب "كتاب الجماهير في الجواهر" و"الآثار الباقية عن القرون الخالية" و"تجريد بر الشعاعات والأنوار" و"كتاب الأبجار" و"كتاب الصيدلة" و"القانون المسعودي" و"كتاب ما للهند من مقولة مقبولة ومرذولة" المعروف بكتاب الهند، توفي في عام ٤٤٠هـ في غزنة.

٦-ابن باجة

أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ (م٥٣٣ هـ) هو فيلسوف أندلسي، كان مشهورا بالأدب والعلوم الرياضية والطب والموسيقي، من مؤلفاته مجموعة من الفلسفة والطب والطبيعيات.

٧-ابن طفيل

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي (١١٠٠-١١٨٥م/٥١٨هـ) أندلسي عالم معروف في الرياضيات والفلسفة والأدب، وهو من رجال القرن السادس، ومن أكابر علماء الأندلس، له قصة "حي بن يقظان" يحاول فيها التوفيق بين

الفلسفة والدين.

٨- ابن الهيثم

أبو علي محمد بن الحسين، ولد في القرن الرابع (٩٦٥-١٠٣٩)أصله من البصرة، انتقل إلى مصر، كان من نوابغ عصره في العلوم الرياضية، ولخص كثيراً من كتب أرسطو وشرحها، ولخص بعض كتب جالينوس، أشهر كتبه "المناظر في البصريات" أفاد منه علماء المغرب.

٩- مسكويه

هو أبو علي الخازن أحمد بن محمد بن يعقوب من رجال القرن الخامس(١٠٣٠م/٤٢١هـ) كان من نوابغ المفكرين، كانت له معرفة تامة بعلوم الأقدمين، ألف كتباً كثيرة، وصاحب ابن العميد، وأشهر مؤلفاته كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم، وكتاب السعادة.

١١-أبو حامد ابن محمد الغزالي

محمد بن محمد بن أحمد (م ٥٠٢هـ) أكبر علماء الكلام في عهده، وهو أحد أئمة المذهب الشافعي، ولد في طوس في عام ٤٥٠هـ، ثم سافر إلى نيسافور، وكان علمه الواسع بالفلسفة، والعلوم الشرعية سبباً في إقبال نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي، فوكل إليه إدارة المدرسة النظامية التي أسسها في بغداد، وبعد سنتين ترك المدرسة، ثم عكف على الدروس في جوامع دمشق، والقدس، والإسكندرية، شرع في

التأليف للدفاع عن الإسلام، وترجيحه على الأديان الأخرى والرد على الفلسفة. ولقب بحجة الإسلام، ومن أشهر كتبه: "إحياء علوم الدين" و"مقاصد الفلاسفة" و"تهافت الفلاسفة" في الرد على الفلسفة، ومال في آخر عمره إلى العبادة وتزكية النفس، وبين مذهبه ورحلته إلى الدين الخالص في كتابه المعروف "المنقذ من الضلال" يقول علماء الغرب: إن الإمام الغزالي طعن الفلسفة طعنة قاضية، ويعد الإمام الغزالي أعظم أعلام الفكر العربي والإسلامي، ومن أئمة البحث والنظر، وعدّ من نوابغ الدهر.

١١- ابن رشد

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ولد سنة ٥٢٠هـ في قرطبة، يعتبر أكبر فلاسفة العرب وأشهر فلاسفة الإسلام، كان ابن رشد طبيباً فيلسوفاً فقيهاً فلكياً، مالكي المذهب، اشتغل بالأدب والفن، كان يحفظ الموطأ عن ظهر قلبه كما كان يحفظ قصائد الشعراء من الجاهلية والإسلام والعصور المتأخرة، فقد دافع ابن رشد عن الفلسفة وردّ على كتاب الإمام الغزالي تهافت الفلاسفة، وله كتب كثيرة في علوم كثيرة.

في الفلسفة الإسلامية ثلاثة أسماء تعلو على ما عداها وهي ابن سينا، الغزالي، ابن رشد، أما ابن سينا فهو أعلى فلاسفة الشرق في الإسلام، والغزالي أقدرهم بحثاً وأبعدهم نظراً وأعمقهم فكراً، وهو الذي أدرك قبل سواه استحالة الوصول

إلى الحقيقة بطريق العقل، أما ابن رشد فإنه يختلف تماماً عن الإمام الغزالي، كانت لابن رشد الإمامة في سائر علوم الأوائل، وكان يتوجه إليه الناس للفتوى في الطب، كما يتوجهون إليه للفتوى في الفقه، والرأي في علوم الفقه والفن والأدب، وتولى القضاء، واتهم بالزندقة في عهد الخلفاء الموحدين، ومن كتبه "تهافت التهافت" في الردّ على كتاب "تهافت الفلاسفة" للإمام الغزالي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد والكشف عن مناهج الأدلة.

١٢ -ابن خلدون

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون من أعظم فلاسفة الإسلام، ولد في تونس سنة ٧٣٧هـ وتوفي في مصر سنة ٨٠٨هـ.

عرف ابن خلدون بين العلماء والمفكرين بكتاب واحد بل بجزء واحد من كتابه وهو" مقدمة ابن خلدون" وهو مقدمة لتاريخه المسمى"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر".

تحتوي مقدمته على مباحث في كثير من المواضيع المتعلقة بالتاريخ وطبائع الأمم والاجتماع والسياسة والصناعة والملكات والاقتصاد، وقد وضع فلسفة للتاريخ، وقام بتحليل أحداثه ونقده، ووضع مقاييس لقبول الراوية وردها، ولا يزال الكتاب مرجعاً للبحث في العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والسياسة والاجتماع وفلسفة التاريخ، والعلم العام، وتاريخ

العلوم والآداب والفن وفلسفة اللغة والاجتماع، وفي كثير من هذه المباحث لا يزال يتطفل عليه الفلاسفة المعاصرون.

وقد تصدى هذا الفيلسوف المسلم في القرن الثامن للهجرة لمباحث اجتماعية وسياسية وصل إليها ذهن الأوربيين في العصر الحديث، أمثال هيجل ومكيافل وجيبون بينما كانت أوربا في ذلك القرن في ظلام.

الفصل الخامس

الفن الإسلامي

طبع الدين الإسلامي الفن بطابعه الخاص كما حول الأدب إلى دوره الإيجابي في الحياة، كان الفن قبل الإسلام يدور حول إثارة الجنس والغرائز الحيوانية في الإنسان، وكان يتجلى هذا الاتجاه في المباني والحدائق والملاعب والجوانب الفنية الأخرى من الرسم والتصوير والموسيقي والغناء، فامتنع الفنان المسلم عن الرسوم الآدمية والحيوانية والتصورات الوثنية، وما يثير الشهوات، ولذلك اخترع المسلمون الفن الزخرفي برسم أوراق الأشجار والأزهار، والوريقات والدوائر والزوايا، والمربعات والمثلثات المشتبكة، وتجلت عبقرية الفنان المسلم في التأليف بين الألوان المختلفة بطريقة تهيج النظر وتريح العين.

ابتكر المعمار المسلم نظاماً جديداً للبناء، يتميز بالوحدة رغم التشعب والانفتاح، وقد أقيم مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة على نسق جديد تظهر به بساطة الدين، وسعة الفكر، وفخامة البناء، وعلى مثال مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أقيمت المساجد في الأمصار الإسلامية، وفي عهد الأمويين زخرفت الأعمدة وزينت بكتابات من القرآن الكريم،

وزخرفت السقف والجدران، وكان الخط العربي الكوفي عنصراً كبيراً في الزخرفة، فإن هذا الخط يصلح للمد والتنوع، ثم تنوعت طرق الكتابة لتزيين الجدران والسقف كخط الديوان والرقعة والنستعليق، وكان الخط بأنواعه وسيلة رئيسية أولى للتزيين في البنايات وبناء المدن وتخطيطها وتزويدها بلوازم الحياة.

المدن

نشأت المدن عادة على ممرات القوافل التجارية كما كان ذلك من العادة المتبعة في قديم الزمان، وقد قامت هذه المدن في مواضع كثيرة كبطراء وتدمر في بلاد العرب، ونشأت عدة مدن على شكل القرى التجارية، تجلب إليها المصنوعات من مكان آخر، كذلك كان انتخاب مكان قريب من نهر كبير، أو مورد ماء تسكن به جماعة أو أسرة، ثم تلحق جماعة أخرى أو أسرة أخرى وتنشأ مدينة، وقد نشأت على هذه الشكل مدن كثيرة في مصر والشام والعراق والهند، كما نشأت عدة مدن على ساحل البحر لتكون موانئ للمراكز البحرية، وهي أيضاً كثيرة في العالم، ونشأت مدن كثيرة في المناطق التي توجد فيها المعادن كالفحم والحديد، كما أقيمت مدن على اعتبارات عسكرية، هذه هي الاعتبارات التي أقيمت عليها المدن.

كانت المدن الإسلامية تضم المرافق الآتية: المصالح الدفاعية، قصور الولاة والحكام والعمال، وجامع كبير يقوم كمركز للعبادة والتجمع الشعبي، مركز للتعليم والتربية لإعداد

العلماء والقضاة والإداريين كمركز تجاري ملحق به، وأحياناً كان يلحق بالمسجد مستشفى للعلاج، وتمتاز العمارة العربية بالقباب والمآذن والأعمدة والمنحنيات، وكانت المدن تحاط بأسوار منيعة للدفاع عنها، كما كان لأصحاب كل حرفة حي خاص من أحياء المدينة يعرف بهم ولكل حي أو قسم من المدينة أبواب منيعة تفصله عن سائر الأقسام والأحياء، ويقوم الحراس على حراسة هذه الأبواب التي تغلق إذا قامت ثورة في المدينة فيقطع الاتصال بين أجزائها المختلفة، ومن المدن الإسلامية المعروفة هي:

البصرة

وهي مدينة في العراق، تأسست في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، كانت لها أهميتها التجارية، كانت مركزاً ثقافياً كبيراً، اختطها عتبة بن غزوان في ربيع سنة ١٦هـ، فأنشيء بها أولاً المسجد باللبن والطين وسقف بالعشب، ثم جدده زياد بن أبيه سنة ٤٤هـ، فبناه بالآجر والجص وسقفه بخشب الساج، وبنى بجواره دار الإمارة، وحولها خطط لكل قبيلة منها خطة، ومسجد ومقبرة، وأصبحت في مدة قريبة من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي وخاصة في التجارة بين الهند والصين بحراً، وبذلك حلت محل الأبلة على الخليج الفارس، لم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل و محط رجال الشرق والغرب من مجاهيل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى.

الكوفة

اختطها وأسسها سعد بن أبي وقاص بعد وقعة القادسية عام ١٧هـ/ ٦٣٨م بغربي الفرات على مقبرة بن الحيرة، واختط أبوالهياج بن مالك الأسدي شوارعها وأزقاتها، وأسس بالكوفة جامعاً، وبنى في مقدمته ظلة مقامة على أساطين من الرخام، وبنى المسجد في وسط المدينة حيث تفرعت الطرق والدروب، وبنى في نهاية أحد هذه الطرق دار سعد بن أبي وقاص، واتخذ فيها بيت المال، وكانت الطرق فسيحة رحبة حتى لا يحتجب عن الحرب هواء البادية الذي ألفوه، وسرعان ما أصبحت من أعظم مراكز العلم والسياسة في البلاد الإسلامية وغدت الكوفة قصبة العراق الأعلى، ولما ولى علي بن أبي طالب الخلافة اتخذ الكوفة حاضرة لخلافته لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها ووقوعها في مكان متوسط سهل الاتصال بأجزاء الدولة الإسلامية. وكانت الكوفة مركزاً للعلم والثقافة، وإليها ينسب الخط الكوفي والمدرسة الكوفية في النحو والفقه وهي منافسة للبصرة.

الفسطاط

بنيت مدينة الفسطاط بتخطيط فاتح مصر عمرو بن العاص سنة ١٨هـ، فتح مصر ٦٣٩م، وفي تسمية الفسطاط بهذا الاسم أقوال كثيرة، منها لأن جيش عمرو بن العاص كان قد رابط فيه وتسمى اليوم أمبابة، وظلت الفسطاط تتسع وتزداد

عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال، وذكر المؤرخون انه كان فيها ٢٦٠٠٠ مسجد و٨٠٠٠ شارع مسلوك و١٧٠ ، ١داراً حماماً، وظلت الفسطاط قاعدة الديار المصرية ومقراً للإمارة حتى بنيت مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ، فنزل بها أمراء مصر وسكنوها.

الواسط

اتخذها الحجاج بن يوسف الثقفي في ٨٤هـ، وهي بين البصرة والكوفة (٧٠٢م)، كانت في عهد بني أمية عاصمة العراق العجمي وهي كثيرة الخيرات وافرة الغلات فيها قصور وبساتين ومياه، وينسب إليها عدد من العلماء والصالحين والقراء.

دمشق

كانت دمشق قبل الفتح العربي مقر حكام الروم، وقد أصبحت حاضرة الدولة الإسلامية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، و غدت أكبر المدن الإسلامية في ذلك العصر، وأفخمها في الأبهة والعمارة، وامتازت على غيرها من المدن بكثرة الأنهار والينابيع، وقد شيد بها معاوية قصر الخضراء، وقد سمي بهذا الاسم للون نقوشه وطلائه، ولما ولى الوليد الخلافة جمل دمشق وضواحيها بالمباني العامة، وبنى الأمويون في دمشق مجاري مياهها، ولا يزال نهر بردى يجلب الماء إلى المدينة وبلغ نظام مجاري الماء في الدقة بحيث أصبح لكل دار في دمشق نافورة

خاصة بها، وذلك بفضل القنوات السبع الرئيسية التي شقها الأمويون لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة والقناطير الكثيرة المقامة على الأعمدة التي شيدوها لتوصيل ماء الشرب إلى الدور.

بغداد

اتخذها مدينة أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني في العراق وهي على الجانب الغربي من دجلة، وبلغت المدينة ذروتها في عهد الخليفة هارون الرشيد، وظلت هذه المدينة عاصمة العباسيين إلا فترة قصيرة، انتقلت العاصمة فيها إلى سر من رأى، وبنى المنصور بها قصره قصر الذهب، وسرعان ما ازدحمت بغداد بالعلماء والتجار والصناع، فلم ير المنصور بدا من الإقامة خارج المدينة في مكان طيب الهواء فبنى قصر الخلد في سنة ١٥٧هـ، وأقطع المنصور قطائع سرعان ما عمرت وازدحمت بالسكان، واتسعت وبنيت الرصافة للجيش في الجهة الشرقية، من نهر دجلة القابلة لبغداد والكرخ في الجزء الغربي من بغداد، لهما ذكر في شعر الشعراء لجمالهما وثقافتهما.

يقول الدكتور مصطفى السباعي:

"كانت بغداد قبل أن يبنيها المنصور الخليفة العباسي الشهير ضيعة صغيرة يجتمع فيها على رأس كل سنة التجار من الأماكن القريبة منها، فلما عزم المنصور على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين، ثم وضع بيده أول آجرة في بنائها، وقال: بسم الله

الرحمن الرحيم، الحمد لله، والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله، بلغ مجموع ما أنفق على بنائها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم، وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مائة وألف، وكان لها ثلاثة أسوار يلي الواحد منها الآخر، بلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وبلغت عدد دوريها وسككها ستة آلاف بالجانب الشرقي وأربعة آلاف بالجانب الغربي، وكان فيها عدا دجلة والفرات أحد عشر نهراً فرعياً تدخل مياهها إلى جميع بيوت بغداد، وقصورها، وكان في نهر دجلة وحده من المعدات (المعبرانيات) ثلاثين ألفاً، أما حماماتها فقد بلغت ستين ألف حمام، وفي أواخر عهد العباسيين بها تناقص هذا العدد إلى بضعة عشر ألف حمام، وأما مساجدها فقد بلغت ثلاثمائة ألف مسجد، وأما سكانها وكثرة العلماء والأدباء والفلاسفة فذلك فيها ما لا يحيط به حصر، ولننقل هنا ما قاله أبو بكر الخطيب في وصفها: "هذا إلى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي أفردها الله بها دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً، وبين ذلك من الأخلاق الكريمة والسجايا المرضية، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمثة، والأحوال الجميلة، والحذق في كل صنعة والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلمين، والفقهاء والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحساب والنحوية، ومجيدي الشعراء، ورواة الأخبار والأنساب وفنون الآداب، وحضور كل طرفة،

واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها، سيما زمن الخريف، ثم إن ضاق مسكن بساكن وجد خيراً منه، وإن لاح له مكان أحب إليه من مكانه لم يتعذر عليه النقلة إليه من أي جانب من جوانبه أراده، ومن أي طرف من أطرافه، خف عليه، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بعد، وإن آثر أن يستبدل داراً بدار أو سكة بسكة أو شارعاً بشارع أو زقاقاً بزقاق، أو غير ذلك من التبديل اتسع له الإمكان في ذلك حسب الحالة والوقت، ثم عيون التجار المجهزين والسلاطين المعظمين، وأهل البيوتات المبجلين، في ناحية، تنبعث الخيرات بهم إلى الذين هم في الحال دونهم غير منقطع ذلك، ولا مفقوداً، فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها إلا هو وحده".

وقال: " لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها، وكثرة علمائها، وأعلامها وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة أطرارها[1] وكثرة دورها ومنازلها، ودوريها وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها، ومساجدها، وحماماتها، وطرزها وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وبرد ظلالها، وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدة سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد، إذ

[1] جمع طر بالضم: شفير النهر والوادي وطرف كل شيء وحرفه.

الدنيا قارة المضاجع، دارة المراضع، خصيبة المراتع، مورودة المشارع، ثم حدثت بها الفتن، وتتابعت على أهلها المحن، فخرب عمرانها، وانتقل قطانها، إلا أنها كانت قبل وقتنا والسابق لعصرنا على ما بها من الاختلال والتناقض في جميع الأحوال، مباينة لجميع الأمصار، ومخالفة لسائر الديار[1]".

سامرا

اعتمد المعتصم على الأتراك فلما ثار العرب على الأتراك انتقل إلى عاصمة جديدة بناها على بعد ١٠٠كم شمالي بغداد في ٢٢٠هـ، بنى فيها قصراً عظيماً ومسجداً كبيراً وأسواقاً خاصة، خربت بعد خمسين سنة، وعاد العباسيون إلى بغداد وتعرف اليوم بـ" سامرا"

وبني المعتصم والمتوكل في مدينة سامرا سبعة عشر قصراً كما ذكر ياقوت، وإن هذه المدينة لما عمرت أطلق عليها اسم "سرور من رأي" ثم اقتصر الاسم فقيل "سر من رأي" لما خربت واستوحشت وسميت "ساء من رأي" ثم اقتصرت فقيل "سامرا" قال ابن المعتز في وصف "سامرا" "إنها وإن جفت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى، كوكبها يقظان، وجوها عريان، وحصاها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها مسك اذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مريء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك".

---

[1] من روائع حضارتنا، ص: ٢٧٨- ٢٨١ للدكتور مصطفى السباعي.

القاهرة

فتح القائد الفاطمي جوهر الصقلي مصر عام ٣٥٨هـ، وأنشأ مدينة عرفت بمدينة القاهرة في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، ثم أنشأ فيها جامعاً كبيراً للصلاة والتعليم وهو جامع الأزهر، وكان يريد أن يجعله مركزاً للدعوة الشيعية، وصل إليها علماء وأدباء من مختلف أنحاء العالم، فأصبحت القاهرة مدينة شامخة لمساجدها ومدارسها، ومراكز الثقافة فيها، وفي سنة ٤٨٠هـ وسع الوزير بدر الجمالي رقعة مدينة القاهرة شمالاً وجنوباً وسمح بالسكن فيها، وسميت الأبنية التي بداخل الأسوار باسم داخل السور، كما سميت الأبنية التي في خارج الأسوار باسم ظاهر القاهرة.

ولما تولى السلطان صلاح الدين الأيوبي الحكم أزال آثار الشيعة وحول الأزهر إلى مركز لأهل السنة، وقد أحاط صلاح الدين الأيوبي القاهرة والفسطاط بسور واحد وبنى قلعة الجبل، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون زادت رقعة القاهرة نحو النصف وغدت هي والفسطاط مدينة واحدة من العباسية إلى بركة الجيش، ومن النيل إلى المقطم، وامتازت مدينة القاهرة بالقصور العالية والدور الضخمة والمنازل الرحبة والأسواق الممتدة والمناظر النزيهة والجوامع البهيجة، والمدارس الرائعة والحدائق الفاخرة.

فاس

وضع إدريس الثاني مؤسس الدولة الإدريسية أساس مدينة فاس يوم الخميس غرة ربيع الأول ١٩٢هـ، وبنى فيها

حمامات وفنادق وجوامع وفيها جامع القرويين، أكبر الجوامع في المغرب ومن أقدم الجامعات الإسلامية، وجمعت مدينة فاس جميع الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة، وأسواق فاس تحيط بجامعة القرويين، وقد جمعت فاس بين عذوبة الماء، واعتدال الهواء، وطيب التربة، وحسن الثمرة، وسعة المحرث، وعظيم بركته، ووفر المحطب وكثرة عدده وشجره، وبها منازل مؤنقة وبساتين مشرفة، ورياض مورقة وأسواق مرتبة منسقة وعيون منهمرة وأنهار متدفقة وأشجار ملتفة وجنات دائرة بها محتفة.

قرطبة

مدينة قديمة اتخذها المسلمون وعمروها وصارت مقرا للدولة الأموية في الأندلس، فأقاموا فيها قصوراً ومساجد ومتنزهات، وجامع قرطبة نموذج للفن الإسلامي أطلق عليه الغربيون اسم جوهرة العالم، وفي الشمال الغربي لمدينة قرطبة بنى عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء.

"كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي عاصمة الأندلس المسلمة، تنار بالمصابيح ليلاً ويستضيء الماشي بسرجها عشرة أميال، لا ينقطع عنه الضوء (أي ستة عشر كيلو متراً)، أزقتها مبلطة، وقماماتها مرفوعة من الشوارع، محاطة بالحدائق الغناء حتى كان القادم إليها يتنزه ساعات في الرياض والبساتين قبل أن يصل إليها، كان سكانها أكثر من مليون نسمة

(في ذلك العصر الذي لم تكن فيه أكبر مدينة في أوربا تزيد عن خمسة وعشرين ألفاً) وكانت حماماتها تسعمائة حمام وبيوتها ٢٨٣٠٠٠ بيت، وقصورها ثمانون ألف قصر، ومساجدها ستمائة مسجد، وكانت استدارتها ثمانية فراسخ(أي ثلاثين ألف ذراع) كان كل من فيها متعلماً، وكان في ربضها الشرقي مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا في ناحية واحدة من نواحيها، وكان فيها ٨٠ مدرسة يتعلم فيها الفقراء مجاناً، وخمسون مستشفى، وأما مسجدها فكان ولا تزال آثاره حتى اليوم آية خالدة في الفن والإبداع، كان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً تقوم قبته الهيفاء على روافد من الخشب المحفور وتستند إلى ١٠٩٣ من الأعمدة المصنوعة من مختلف الرخام على شكل رقعة شطرنج فيتألف منها تسعة عشر صحناً طولاً وثمانية وثلاثون صحناً عرضاً، وكان يضاء في الليل بأربعة آلاف وسبعمائة مصابيح تستنفد في كل سنة ٢٤ ألف رطل من الزيت، وترى في وجهه الجنوبي عشر باباً مصفحاً بصفائح برونزية عجيبة الصنع خلا الباب الوسط الذي كان مصفحاً بألواح من الذهب، وترى في كل من وجهه الشرقي والغربي تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب، وأما محرابه فحسبك أن يقول فيه مؤرخ الفرنج: "إنه أجمل ما تقع عليه عين بشر، وإنه لا يرى أحسن من زخرفه وسناه في أي أثر قديم أو حديث"[1]..

[1] من روائع حضارتنا، ص: ٢٧٢– ٢٧٣ للدكتور مصطفى السباعي.

الزهراء

مدينة قرب قرطبة اختطها عبد الرحمن الناصر الحكم وهو يومئذ سلطان تلك البلاد في سنة ٣٢٥هـ وعملها منتزها له وأنفق في بنائها من الأموال ما تجاوز عن الإسراف، وجاب إليها الرخام من أقطار البلاد، وأهدى إليها الملوك من آلائها ما لا يقدر قدره، وكان الناصر هذا قد قسم جباية بلاده أثلاثاً ثلث لجنده، وثلث لبناء الزهراء وعمارتها.

وتبعد الزهراء عن قرطبة ستة أميال وخمسة أسداس ميل وقد أكثر أهل قرطبة في وصفها، وقال الشعراء فيها وصنفوا في ذلك تصانيف، وقال ابن زيدون:

إني ذكرتك بالزهـــراء مشتاقاً
والأفق طلق ووجه الأرض قد راق
وللنسيم اعتلال في أصائلـــه
كأنما رق لي فاعتل إشفاقـــا
والروض عن مائه الفضي مبتسم
كما حللت عن اللبات أطواقا

وقد وقف على الزهراء وقرطبة وآثار الأندلس الأخرى التي اندرست شعراء وأدباء زاروا أسبانيا وتذكروا العهد السالف للمجد، وانهمرت الدموع من عيونهم، وخلدوا انفعالهم في كتاباتهم وقصائدهم الشعرية، كان منهم الدكتور إقبال، وأحمد شوقي، ولا تزال قصائدهم تشجي القلوب، وتدمع

العيون، فقد أصبحت هذه الأماكن التي كانت بمثابة الدرر في جيد الزمان وأماكن للتآسي.

يقول الدكتور مصطفى السباعي في كتابه "من روائع حضارتنا":

"وقد ألحق بقرطبة بناء الزهراء الخالد في التاريخ بفنه وروعته حتى قال فيه المؤرخ التركي ضيا باشا: "إنه كان أعجوبة الدهر التي لم يخطر مثل خيالها في ذهن بناء منذ برأ الله الكون، ولا تمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وجدت العقول" كانت قبابه تقوم على ٤٣١٦ عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشا متساويا، وكانت أرضه مبلطة بقطع من الرخام ذي الألوان المختلفة على شكل جميل، وكانت جدره مصفحة بألواح لازوردية ذهبية، وفي ردهاته عيون ماء عذب ينصب ويغيب في أحواض من الرخام الأبيض مختلفة الأشكال إلى أن ينتهي إلى بركة في ردهة الخليفة، وكانت ترى في وسط البركة إوزة من ذهب معلقة في رأسها لؤلؤة وفي مياهها من صنوف الأسماك والحيتان الألوف الكثيرة حتى كان عدد ما يرمى لها من الخبز كل يوم اثني عشر ألف رغيف.

وفي الزهراء المجلس المسمى "قصر الخلافة" وكان سقفه وحيطانه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتلون أجناسه، وفي وسطه حوض عظيم مملوء بالزئبق، وفي كل جانب من جوانب المجلس ثمانية أبواب على حنايا من العاج

والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها على صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أو ما إلى أحد مواليه فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك، وكانت تحيط بالقصر حدائق غناء وميادين واسعة الأرجاء، ومن وراء ذلك سور عظيم يحيط بهذا البناء العجيب فيه ثلاثمائة برج حربي، وكانت الزهراء تحتوي على دور الخليفة والأمراء والحريم، وقاعات كبرى لجلوس الملك في مكان خاص أطلق عليه السطح الممرد، وكانت له قبة قراميدها من ذهب وفضة، ولكن القاضي منذر بن سعيد أنكر على الخليفة فعله هذا في خشد هائل بجامع قرطبة فنقضها وأعاد بناءها من لبن وكان فيها دور الصناعة والآلات، كدار صناعة آلات السلاح للحرب، ودار صناعة الحلي للزينة، ودار صناعة النحت والزخارف والتماثيل، وغير ذلك من المهن والصناعات، استغرق بناء الزهراء أربع سنوات، كان معدل ما ينحت فيها كل يوم من الصخر ٦٠٠٠ صخرة عدا عن الصخر المنصرف في التبليط، وعدد العمال الذين يشتغلون فيها كل يوم عشرة آلاف رجل، ويخدم فيها كل يوم ١٤٠٠ بغل، ويردها في

كل ثلاثة أيام ١١٠٠ حمل من الجير والجص.

أما جامع الزهراء فقد كان يعمل فيه كل يوم من حذاق الصناع ألف رجل منهم ٣٠٠ بناء و٢٠٠ نجار و٥٠٠ من الأجراء وسائر الصناع، وقد استتم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً فقط، وهي سرعة لا يكاد لها نظير".

وإذا انتقلنا إلى غرناطة تجلت لنا عظمة البناء والعمارة في قصر الحمراء وقد كان آية عجباً يدهش له الناظرون ولا يزال رغم عوادي الزمن محط أنظار السائحين من بلاد العالم كلها، أقيم هذا القصر على منحدر جبل يشرف على مدينة غرناطة وحقول البقعة الواسعة الخصيبة المحيطة بها، فبدا من أجمل أمكنة العالم، وكانت فيه قاعات متعددة منها قاعة الأسود، وغرفة الأختين وقاعة العدل، وقاعة السفراء، يصف "فيكتور هوجو" بقوله:

"أيتها الحمراء أيتها الصحراء أيتها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال، وجعلتك آية الانسجام، أيتها القلعة ذات الشرف والمزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان المائلة إلى الانهدام! حينما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب".

وإن أشبيلية كان فيها ستة آلاف نول للحرير وحده، وكانت محاطة من كل أطرافها بأشجار الزيتون ومن ثم كان فيها مائة ألف معصرة للزيت.

كانت مدن أسبانيا عامرة، وكانت كل مدينة مشهورة بأنواع الصناعة، تقبل عليها أوربا بشغف لا مثيل له، حتى إنها كانت مشهورة بمصانع الدروع والخوذ وسقى الفولاد، فيقبل الأوربيون على شرائها من كل مكان، ويقول رينو في كتابه الغارة على فرنسا: "إن العرب أغاروا من الأندلس على جنوبي فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولاني وعنبسة الكلبي والحر الثقفي مدائن أربونة وفرتشونة وأفنيون وليون كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للإفرنج مثلها".

القيروان

مدينة عظيمة مصرت في أيام معاوية، وكانت تونس قد اكتسبت شخصيتها الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد أنشأ هذه المدينة فاتح الإسلام عقبة بن نافع الفهري، وكان موضع القيروان أجمة عظيمة لا تشقها الحيات من تشابك شجرها، وفيها سباع، وكان عقبة بن نافع مستجاب الدعوات فجمع من كان في جيشه من الصحابة ودعا: أيتها السباع والحشرات نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا، فإذا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه فرأى الناس ذلك اليوم عجباً لم يروه مثل ذلك، وكان السبع يحمل أشباله والذئب أجراءه والحية أولادها وهي خارجة سربا سربا، فحمل ذلك كثيراً من البربر على الإسلام ثم بدأ بناء المدينة.

واسم القيروان دخيل ويعنى محط الجيش وموضع

اجتماع الناس في الحرب، وفي مدة قليلة صارت قلعة حصينة انطلقت منها جيوش الفاتحين إلى شمال إفريقيا، وحملت ثروة فنية إسلامية وتظهر آثار الفن المعماري الإسلامي جلية في مبانيها، وقيل إن ملوك الروم طلبوها بثمن بالغ فقال أهل القيروان لا تخرج أعجوبة من العجائب من بيت الله إلى بيت السلطان وقيل إن بالقيروان اسطوانتين لا يدري جوهرهما ما هو، وهما تترشحان ماء كل يوم جمعة قبل طلوع الشمس".

مدينة القطائع

أنشأها ابن طولون في مصر بعد ما ضاقت مدينة العسكر التي أسسها صالح بن علي العباسي سنة ١٣٣هـ، بسكانها من أتباع ابن طولون وحاشيته وعسكره، واتخذ ابن طولون لإقامته قصراً فسيح الأرجاء واتخذ أمامه ميداناً فسيحاً، ثم اختط كبار رجال دولته وقواده، وغلمانه وأتباعه، دورهم حول هذا المكان، وأخذ كل منهم قطيعة خاصة به فسميت هذه المدينة القطائع وفي المدينة بنى أحمد بن طولون ثالث المساجد الجامعة التي أقيمت فيها صلاة الجمعة منذ الفتح الإسلامي بعد جامعي عمر والعسكر.

مدينتا المهدية والمنصورية

أنشأ عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب مدينة جديدة على بعد ستين ميلاً من مدينة القيروان، سماها المهدية وجعلها حاضرة الدولة الفاطمية، ثم لما ولى ابنه المنصور

الخلافة سنة ٣٣٤هـ وانتصر على أبي يزيد بالقرب من مدينة القيروان اتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته سنة ٣٣٧هـ، فسميت المنصورية نسبة إليه .

مدينة مراكش:

هي حاضرة الدولة المرابطية واختطها الأمير أبو بكر ابن عمر، ويوسف بن تاشقين من بعده، واشتهرت مراكش باتساع أروقتها ورحابة دورها وارتفاع مبانيها وزخرف أسواقها بالسلع، ولمراكش أهمية كبيرة من حيث موقعها الجغرافي، وتزخر بالبساتين والقصور والأسواق، والفنادق، كما تشهر بالأعناب والفواكهه، والثمار وأشجار الزيتون ودهن الهرجان.

مدينة الرباط

مدينة أسسها يعقوب المنصور، بنيت في هذه المدينة المساجد والمدارس والقصور والدور والحوانيت وهي من أغنى مدن القارة الإفريقية، وأصبحت الرباط حاضرة رسمية لمراكش سنة ١٩١٢م.

الفصل السادس

الجوامع

من الجوامع المعروفة الجامع الأعظم الذي بناه عقبة بن نافع، وهو أول جامع إسلامي في شمال إفريقية، فيه قاعات وأروقة وصحن واسع للصلاة والمئذنة الضخمة، وتتوسط ساحة الجامع ساعة حجرية، يمثل هذا الجامع آثار الفن المعماري الإسلامي وأعمال الحفر والنقش في الخشب.

قبة الصخرة

أنشأ عبد الملك بن مروان قبة الصخرة المقدسة في بيت القدس، وتعتبر قبة الصخرة من أغنى المباني الإسلامية في الزخارف الفسيفية التي تتزين من أجزائها وتتعلق عناصرها الزخرفية من الأشجار والفواكه والأواني ورسوم الأهلة والنجوم وأدخلت الإصلاحات في عهد المأمون.

جامع الزيتونة

وهو أكبر جوامع تونس، تم بناؤه سنة ٧٣٢م، أعيد بناؤه سنة ٨٤٠م، ثم أدخل التعليم فيه، فأخذ شكل الجامع، يدرس في مواضيع الأدب والتاريخ والفلسفة، وألحقت إلى الجامعة مكتبة كبيرة للكتب والمخطوطات، يقال إن هذه المكتبة

كانت تحتوي على أربعين ألف مخطوطة، ثم أضيفت إليها مخطوطات نادرة أخرى، وظلت جامعة رسمية، ثم انكمشت وتضاءلت في العصور الأخيرة وحولها رئيس تونس الحبيب بورقيبة إلى كلية عصرية، وبعد الانقلاب الأخير الذي قام به زين العابدين بن علي أعيدت إلى هيئتها السابقة كجامعة إسلامية، وقد أنجبت هذه الجامعة كبار العلماء والشخصيات العلمية في تاريخ الإسلام.

جامع قرطبة

أنشأه عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش عام ١٨٦هـ واستمر بناؤه سبع سنوات ويتميز هذا الجامع بالزخارف المذهبة، فيه رواق القبلة يبلغ من الفخامة بحيث أن الناظر يجد نفسه أمام غابة من الأعمدة بلونها الأحمر والأبيض تشكل زخارف الجامع ثروة هائلة للفن الإسلامي.

وكان للمسجد واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع، وثلاث وتسعون ومائتا وألف سارية، وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه المزين بالفسيفساء وصب في سواريه الذهب الإبريز، واللازورد، وأما المنبر فقد صنع من العاج، ونفيس الخشب، ويتألف من ستة وثلاثين ألف وصل، (قطعة منفصلة) سمرت بمسامير الذهب والفضة، وزين بعضها بالأحجار النفيسة، وكان للجامع أربع ميضآت يصل إليها الماء من الجبال وبنيت الدور إلى الجانب الغربي من المسجد لنزول

فقراء المسافرين وأبناء السبل، وفيه أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون.

جامع ابن طولون

كان الحكام المصريون مولعين ببناء المدن وإنشاء الجوامع، كما كان العباسيون في بغداد، والأمويون في قرطبة، ومن آثارهم جامع ابن طولون وهو ثالث الجوامع في مصر، وأقيم على جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة، ومن مزاياه أنه تقع في وسطه نافورة عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة وفي جوانبها عشرة أعمدة من الرخام، وأرضها من الرخام، وعلى سطحها علامات للزوال لتعيين أوقات الصلاة، وقد صنعت من خشب الساج، وكان هذا الجامع معهداً تدرس فيه العلوم الدينية ومكاناً تعلن فيه أمور الدولة، وتعقد فيه المحاكم للفصل في قضايا الأفراد أو فض المشاكل.

الجامع الأزهر

وضع جوهر الصقلي الذي فتح مصر أساس الجامع الأزهر ١٤/رمضان سنة ٣٥٩م، وتم بناؤه في سنتين، وأقيمت الصلاة الأولى فيه في ٧/رمضان سنة ٣٦١م، يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضاة، أما المقصورة التي بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض الملون

في صفوف متوازنة، وسنة ١١٦٧هـ بنى الأمير عبد الرحمن مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام وفي كل منها نوافذ لدخول النور والهواء وزينت الجدران بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل.

وأنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن القبلة القديمة، ثم أقيم تسعة محارب.

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب، وحدب، مختلف العلوم والفنون، وفي عام ٣٧٨هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز تحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية، والعقلية، وزاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين، وأنشأوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع، وحبسوا عليه كثيراً من الأوقاف، وأهدوا إليه الهبات الجليلة.

الجامع الأموي في دمشق

أول من اختط مسجد دمشق أبو عبيدة الجراح، ثم بناه الوليد بن عبد الملك وتأنق فيه فجاء آية من آيات الفن العربي والبيزنطي، يعد هذا الجامع بجامع المحاسن والغرائب، والعجائب، وكان محرابه مرصعاً بالجواهر الثمينة، عليه قناديل من الذهب والفضة ومحلى بالفسيفساء ولا يزال الجامع حافظاً

لرونقه وبهائه إلى اليوم، وهو جامع المحاسن، كامل الغرائب معدود من إحدى العجائب فقد أزر بعض فرشه بالرخام وألف على أحسن تركيب ونظام.

جامع القرويين

يقع في القطاع الغربي في مدينة فاس، حيث كان يسكن المهاجرون القيروانيون، وميلا إلى التخفيف انقلب هذا الاسم إلى القرويين، قد تبرعت السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله القيرواني بعد وفاته بالمال لبناء هذا المسجد، ثم قامت أختها مريم لبناء جامع آخر في الجانب الآخر من المدينة، تحول هذا الجامع إلى مركز للتعليم، ظل كذلك إحدى عشر قرنا، ويعتبر من الجامعات الإسلامية الأولى، كان يدرس فيها الطب والفلسفة والطبيعة والفلك والعلوم الإسلامية التقليدية، وكان التعليم فيها حرا مجانا، يختار الطلبة والأساتذة ما يشاؤن من المواضيع، ووضع نظام ومنهج معين في عام ألف وسبع مائة وتسع وثمانين للميلاد.

جامع القيروان

هو أقدم الجوامع في غرب العالم الإسلامي، وتقول الرويات إن موقع محرابه كشف لعقبه بن نافع فاتح شمال إفريقيا في حكمه، فبنى من حوله مسجدا صغيرا وقد أعيد بناء المسجد عام ٦٩٥م-٧٦هـ ثم زيد فيه ما بين ١٠٦ - ١٢٧ هـ، وبعد ذلك أجريت فيه تجديدات كبرى في عامي ٢٢٣ - ٢٤٨هـ، ويصح

القول أن جامع القيروان في جوهره بناء من القرن التاسع أقيم على أسس قديمة.

والمسجد على الطراز القديم، مئذنة مربعة ضخمة، خلف الجدران أبواب يسيرة العدد، تفضي إلى فناء تقوم في مؤخرته قاعدة ضخمة معمدة تقوم على محورها قبتان، منبره الخشبي هو أقدم منبر باق في العالم الإسلامي كله، والمسجد يمثل فن العمارة القديم، والتصور الإسلامي للعبادة وموضعها بالبساطة والسعة والوحدة، والمساواة فلا مكان يخصص لأحد، وقد أضيفت مقصورة للأمير بعد اغتيال بعض الأمراء في المسجد و المسجد كالمساجد الأخرى كان مركزاً لإعلان الضرائب وتعبئة الجيش وعقد حلقات التعليم، وتسوية الأمور السياسية، ويقدم المسجد أيضاً صورة للجمع بين التخطيط المعماري الفعال، وبين الاستجابة لحاجات المجتمع.

جامع الكتبية

جامع الكتبية أورع مسجد بناه الموحدون في الغرب وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة، ويتميز جامع الكتبية بمراكش بأساطينه وصحونه وأقواسه المقرنصة وبجمال قبابه وارتفاع سقوفه وامتداد أروقته وقد بلغ منبر الجامع حداً كبيراً من الإبداع، ويقول بعض المؤرخين إن هذا المنبر أجمل منبر في المغرب بل إنه أبدع منبر في العالم الإسلامي كافة، وتعتبر منارة الكتبية التي بناها يعقوب المنصور من أجمل الآثار التي

خلفها الموحدون، وتتألف هذه المنارة من طبقات من الغرف المقوسة السقوف أو الحنايا يصل بينها درج لا مرقاة بها. وصممت النقوش الدقيقة على شكل الأزهار وسعف النخيل، وتعلو القاعة السادسة قبة مثمنة الشكل ذات أضلاع ومقرنصات تكون مجموعة هندسية بديعة.

ومن أهم الجوامع "الجامع الأقمر" الذي بناه الخليفة الآمر الفاطمي سنة ١٩٥هـ ثم جدده الأمير يلبغي سنة ٧٩٩هـ كانت واجهة الجامع غنية بأنواع الزخرفة، كما أن بها حنايا تنتهي بطاقيات وعقود ومقرنصات، وتقوم العقود على عمد من الرخام وسقف الجامع مغطى بقبوات صغيرة.

ومن الجوامع جامع الصالح الذي بناه الصالح طلائع بن رزيك، لهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة إيوانات وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية، على شكل أزهار.

ومن الجوامع الجامع الأعظم بمدينة إشبيلية وبه منارة عظيمة قيل أنه ليس في بلاد الإسلام منارة أعظم منها، وكذلك مسجد ومنارة حسان في الشمال الشرقي من مدينة الرباط، وتعد هذه المنارة من أروع كبريات المنارات الموحدية.[1]

---

[1] تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي د/ حسن إبراهيم حسن ٥٨٥/٤.

المدارس والمعاهد العلمية

كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في الحضارة الإسلامية، فلم يكن مكان عبادة فحسب، بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلوم المختلفة، ثم أقيم بجانب المسجد الكتاب لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة، وقد عدّ ابن حوقل ثلاثمائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية، وكان الكتاب من الاتساع أحياناً بحيث يضم الكتاب الواحد مئات وآلافاً من الطلاب.

ثم قامت المدرسة بجانب الكتاب والمسجد، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في العصر الحاضر، وكان التعليم فيها مجاناً لمختلف الطبقات، ولم يكن التعليم فيها خاصاً لطائفة دون طائفة، بل كانت فرص الدراسة متوافرة لسائر أبناء الشعب، وكانت المدارس تحتوي على مساجد، وقاعات للدراسة، وغرف لنوم الطلاب ومكتبات، ومطابخ وحمامات، وكانت بعض المدارس تشتمل فوق ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق.

كانت المدارس وخاصة المعاهد العليا تملأ مدن العالم الإسلامي أقصاه إلى أقصاه، وكان العظماء والأمراء والأغنياء والحكام يسابقون في إنشاء المدارس والوقف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، منهم نظام الملك الطوسي وزير ملك شاه السلطان السلجوقي، الذي أنشأ المدرسة النظامية في بغداد، كما بنى مدارس في بغداد، وأصفهان ونيسابور، وهرات وغيرهان وكانت المدرسة النظامية ببغداد أولى المدارس النظامية، وأهمها، درس فيها مشاهير علماء المسلمين بين القرن الخامس والتاسع الهجري، وكان التعليم فيها بالمجان.

ومنهم السلطان نور الدين الزنكي (م٥٧٧ هـ) بنى المدارس في سائر بلاد الشام وغيرها مثل دمشق، وحلب وحماة، وحمص، وبعلبك ومنبج والرحبة، كما بنى المارستانات والمساجد ودور الحديث.

ومنهم السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى ٥٨٩هـ فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس.

ومنهم الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل المتوفى ٦٣٠هـ فقد بنى كثيراً من المدارس ودور الأيتام والأرامل، ثم تسابق الخلفاء من السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر إلى إنشاء المدارس فيها، فبلغ عددها ٢٥ مدرسة، ثم ساهم السلاطين والمماليك في إنشاء المدارس فبلغ عدد المدارس بمصر

إلى ٤٥ مدرسة، وصار المجموع ٧٠ مدرسة، وأنشأ الأمراء العثمانيون مدارس كثيرة.

يقول ابن جبير الرحالة الأندلسي أنه شاهد عشرين مدرسة في دمشق، و٣٠ في بغداد في القرن السادس، وكتب الأمير علي صاحب تاريخ الإسلام في الإنجليزية أن العرب أنشأوا المدارس في قرطبة وإشبيلية و طليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها، وكتب جرجي زيدان إن عدد مدارس غرناطة بلغ إلى ١٧ مدرسة كبرى، و١٢٠ مدرسة صغرى والقارة الهندية والباكستانية غنية بالمدارس و المعاهد العلمية.

وكانت المدارس متعددة الغايات، فمنها مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره، وحفظه، وقراءته، ومنها مدارس للحديث خاصة، ومنها مدارس للفقه، ومنها مدارس للطب ومنها مدارس للأيتام، والمدارس على أشكال منها حلقات الجوامع والربط والزوايا، منها مدارس كبرى للعلوم الإسلامية والمارستانات للطب والفلسفة.

كان رؤساء المدارس من خير العلماء وأكثرهم شهرة، ولم يكن المدرسون في صدر الإسلام يأخذون أجراً على تعليمهم حتى إذا امتد الزمن واتسعت الحضارة وبنيت المدارس وأوقف لها الأوقاف جعل للمدرسين فيها رواتب شهرية، وكان الأستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بارزاً بازدياد تلامذته، ومن أكثر العلماء تلامذة الشيرازي، والفارابي والرازي وابن الخطيب

الري، وابن سيناء، والغزالي، ولم يكن يجلس للتدريس إلا من شهد له الشيوخ بالكفاءة، ولما أنشئت المدارس جعل للمتخرجين فيها إجازات علمية يعطيها شيخ المدرسة، وهي تشبه الإجازات العلمية في عصرنا، ولم يكن يسمح للأطباء بممارسة الطب إلا بعد نيل هذه الشهادة من كبير أطباء المدرسة.

وكان للمدرسين شعار خاص يفضلهم عن غيرهم من أرباب المهن، وكان شعارهم عمامة سوداء وطيلساناً أو عمامة خضراء وكسوة مذهبة، ثم اختص العلماء والمدرسون بالجبة.

وكان للمعلمين نقابة كنقابة الطالبين ونقابة الأشراف ونقابات بعض الحرف والمهن الصناعية وكان جماعة المدرسين هم الذين يختارون النقيب وما كان يتدخل السلطان إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء فيصلح بينهم .

المكتبات الإسلامية

من المكتبات الأولى بيت الحكمة وهي مكتبة بغداد، جمعت فيها كتب الطب والعلم، وما ألف في العلوم الإسلامية وتطورت هذه المكتبة التي أنشأها الرشيد، وبلغت القمة في عهد المأمون، وهذه المكتبة لها دور في نشر العلم والفكر.

وقامت في الأندلس مكتبات كثيرة، أكبرها مكتبة قرطبة أنشأها الحكم بن الناصر في ٣٥٠هـ، واقتدى بخلفاء بغداد والأندلس الحكام الفاطميون في مصر، وأنشأ العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٥٣ هـ مكتبة سماها خزانة الكتب، ويقال: إنها كانت تضم ست مائة ألف كتاب وفيها عدة نسخ لكتاب واحد، وكثرت المكتبات في القرن الرابع والخامس وازداد عدد الوراقين، وكانت بعض الكتب تباع بأثمان مرتفعة للغاية لإقبال الناس عليها، وما يدل على شغف الناس، واقتناء الكتب الجديدة ما أنفقه الصاحب بن عباد في شراء كتاب الأغاني ونشأت كذلك مكتبات شخصية كثيرة بالإضافة إلى المكتبات الرسمية، ويفيد التاريخ أن عدداً من الحكام العباسيين راسلوا ملوك العجم لتزويدهم ببعض الكتب العلمية التي كانت في مكتباتهم، وفي هذا العهد الذي كان المسلمون يعكفون على العلم، كان العلم

احتكاراً على بعض الطبقات في الدول غير الإسلامية.

وفي عهد الرشيد كانت كتب الفلسفة والبحث والعلم قد وضعت في مكتبة وأغلقت المكتبة، وفرض الحظر للاستفادة منها لسيطرة رجال الكنيسة وإصرارهم على منع انتشار العلم لأنه يفسد العقائد في بلاد الروم وكان يعاقب الفلاسفة والعلماء في بلاد الروم على آرائهم التي تتعارض مع آراء رجال الكنيسة، وقد تم نقل معظم الكتب العلمية إلى اللغة العربية في القرنين الثالث والرابع، وبدأ الناس يعلقون على هذه الكتب وينشرونها في الأجزاء الأخرى من المملكة الإسلامية، وكانت بعض دكاكين الوراقين مكتبات صغيرة، ويفيد التاريخ بأن بعض الباحثين كانوا يترددون إلى حوانيت الوارقين للاستفادة مما يتوفر فيها من الكتب العلمية، كان منهم الجاحظ، كان يقضي معظم نهاره في حوانيت الوراقين وإذا صحت الرواية التي تفيد بأن الجاحظ مات مدفوناً تحت كتب وقعت عليه فإنها تفيد بتضخم المكتبات في القرن الثالث، وتفيد الروايات بوجود مكتبات خاصة، منها الرواية التاريخية التي تتصل بتأليف ديوان الحماسة لأبي تمام، فإنها تقول بأن أبا تمام اقتبس من الكتب المتوفرة في مكتبة الدار التي أقام بها بضعة أيام، كما تفيد الرواية أن الصاحب بن عباد كان إذا سافر حمل معه أربعين بعيراً محملة بالكتب، هذه الروايات تفيد بانتشار المكتبات

الرسمية وبهذا الاعتبار يعتبر المسلمون رواد العلم والثقافة فإنهم قاموا بإحياء اللغة اللاتينية، ونقلوا ما كان فيها من التراث العلمي، وأخرجوا الدفائن العلمية والبحوث المغمورة إلى النور، في الوقت الذي كانت سوقه كاسدة في أوربا، وقد انتقلت عدة كتب من الفارسية إلى العربية، واعتنى المسلمون بها وفقدت أصولها.

كانت العواصم والمدن الإسلامية تغص بدور الكتب والمكتبات العامة والخاصة بشكل لا مثيل له في التاريخ، فقلما كانت مدرسة في شتى أنحاء العالم الإسلامي ليس بجانبها مكتبة وقل أن نجد قرية صغيرة ليس فيها مكتبة.

أما المكتبات العامة فقد كان ينشئها الخلفاء والأمراء والعلماء والأغنياء، كانت تشيد لها أبنية خاصة وأحياناً كانت تلحق بالمساجد والمدارس الكبرى.

وأما الأبنية الخاصة فقد كانت تحتوي على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة بالجدران، تخصص كل غرفة لفرع من فروع العلم ولكتب الفقه غرفة، ولكتب الطب غرفة، و لكتب الأدب غرفة، وكان فيها أروقة خاصة للمطالعين وغرف خاصة للنساخ الذين ينسخون الكتب وفي بعضها غرف للموسيقي يلجأ إليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط، وفيها غرف لحلقات الدراسة والنقاش العلمي بين رواد تلك المكتبات، وكانت جميعها تؤثث

تأثيثا فخما ومريحا، وكان في بعضها غرف لطعام روادها ومكانة للغرباء منهم كمكتبة يحي بن النجم في بغداد، وكانت تسمى بخزانة الحكمة ودار العلوم التي أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي في الموصل.

ومن أشهر المكتبات مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة، كانت مكتبة عجيبة مما حوت من نفائس المصاحف والكتب والمخطوطات، بلغ مجموع كتبها كما يروي المؤرخون مليوني كتاب، في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والروحانيات، والكيمياء، والهندسة والفلسفة، والفلك،[1].

ومنها مكتبة دار الحكمة بالقاهرة، أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥هـ، بجوار القصر الغربي بالقاهرة، وكانت مؤثثة بالتأثيث الفخم، مفروشة مزخرفة علت على سائر أبوابها، وممراتها الستور، وأقيم بها القوامون والمناولون والفراشون كانت تضم ٤٠ خزانة، و احتوت إحدى خزانتها على ١٨٠٠ كتاب في العلوم القديمة، وكان الدخول إليها مباحا لجميع الناس للمطالعة أو التعلم، وكان فيها كل ما يحتاج إليه الناس من الحبر والأقلام، والورق والمحابر.

ومنها بيت الحكمة في بغداد، أسسها هارون الرشيد، ثم تطورت ووصلت إلى ذروة مجدها في عهد المأمون، وكانت بيت

---

[1] تاريخ التمدن الإسلامي /جرجي زيدان، المجلد الثاني ٢٣٨، من روائع حضارتنا /الدكتور مصطفى السباعي: ٢٥١.

الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف، يجتمع في بيت الحكمة رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون، وكان فيها نساخ ومترجمون يترجمون ما كان يحصل عليه هارون الرشيد والمأمون في فتوحاتهم بأنقرة وعمورية وقبرص، ولما انتصرا المأمون على ملك الروم في بعض المعارك فجعل من شروط الصلح أن يسمح ملك الروم بترجمة ما في خزائنه من كتب بواسطة العلماء الذين يرسلهم المأمون ففعل، وهذا ما أعظم ما يروي في التاريخ عن حاكم منتصر لا يرى ثمناً للنصر أعلى من كتب العلم ينقلها إلى أبناء أمته وبلاده.

ومن المكتبات الإسلامية مكتبة الحكم بالأندلس، كانت غاية من الاتساع والعظمة، أنشأها الحكم المنتصر بن الناصر، جمع إليها الكتاب من أنحاء العالم، وأجمع لها من الكتب ما لم يسبق، وكانت له فهارس غاية في الدقة والنظام، حتى أن الفهرس الخاص بدواوين الشعر الموجودة في تلك المكتبة بلغت أربعة وأربعين جزءاً، وذكر المؤرخون إن مجموع ما حوته هذه المكتبة أربع مائة ألف مجلد.

ثم أنشأ العظماء ورجال الدولة في الأندلس المكتبات حتى ذكروا أن غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكتبات العامة والخاصة وكان الشغف بالكتب في الأندلس سمة في أهلها وكان اقتناؤها من شارات الوجاهة والرئاسة عندهم.

ومن المكتبات العامة في الدول الإسلامية مكتبة بني

عمار في طرابلس، كانت آية من الآيات في العظمة والضخامة، كان فيها مائة وثمانون ناسخاً ينسخون فيها الكتب وكانت تحتوي على مليون كتاب.

ومن المكتبات الخاصة في شرق العالم الإسلامي و غربه مكتبة الفتح بن خاقان المتوفى ٢٤٧هـ، ومكتبة ابن الخشاب المتوفى ٥٦٧هـ ومكتبة جمال الدين القفطي.المتوفى ٦٤٦هـ، ومكتبة بن جرادة العلماء في حلب، ومكتبة الموفق بن المطران الدمشقي المتوفى ٥٨٧هـ.

هذا وأما خزائن الكتب التابعة للمدارس أو المارستانات أو الجوامع فإنها كانت كثيرة، ومنها ما لا تقل عن المكتبات الكبرى، وهناك خزائن خاصة كان يقتنيها العلماء لأنفسهم، وكانت كتب الصاحب بن عباد تنقل على ٤٠ جمل.

وكان للمكتبات العامة موظفون ومناولون، ومترجمون ونساخ، ومجلدون، وكان لكل مكتبة صغيرة أو كبيرة فهارس يرجع إليها لسهولة استعمال الكتب وهي مبوبة بحسب أبواب العلم، وكان من المعروف في نظام المكتبات أن الاستعارة الخارجية مسموحة في أغلبها لقاء ضمان من المكتبات من عامة الناس، أما العلماء وذوو الفضل فلم يؤخذ منهم ضمان، أما الموارد المالية التي كانت تقوم بنفقات المكتبات فمنها ما كان من الأوقاف، التي تنشأ من أجلها خاصة، ومنها ما كان من عطايا الأمراء والأغنياء.

المستشفيات

أنشئ أول مستشفى في الإسلام في عهد الوليد بن عبد الملك، وهو خاص بالمجذومين، ثم تتابع إنشاء المستشفيات، وكانت تعرف باسم المارستانات أي دور المرضى.

وكانت المستشفيات نوعين نوعاً متنقلاً، ونوعاً ثابتاً، أما المتنقل فأول ما عرف في الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق إذ ضرب خيمة للجرحى، فلما أصيب سعد بن معاذ في أكحله قال النبي صلى الله عليه وسلم اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الإسلام، حتى توسع فيه الخلفاء و الملوك من بعد حتى بلغ بعض المستشفيات المتنقلة في أيام السلطان محمود السلجوقي من الضخامة بحيث كان يحمل على أربعين جملاً، ويكون المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاج إليه المرضى من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء، وصيادلة وكان ينتقل من قرية إلى قرية من الأماكن التي لم يكن فيها مستشفيات ثابتة.

وأما المستشفيات الثابتة فقد كانت كثيرة يقتضي بها المدن والعواصم، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى، كانت مستشفيات للجيش، يقوم عليها أطباء

مخصوصون، ومستشفيات للمساجين، يطوف عليها الأطباء في كل يوم فيعالجون مرضاهم بالأدوية اللازمة، وكانت محطات للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة.

كانت مستشفيات عامة تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وفيها قسم للذكور وقسم للإناث، وكل قسم يحتوي على قاعات متعددة، وكل واحدة منها لنوع من الأمراض، فمنها للأمراض الداخلية ومنها للعيون ومنها للجراحة ومنها للكسور، والتجبير، ومنها للأمراض العقلية.

وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضاً، يتخرج فيها الأطباء، وكان يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها مما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم.

ومن المستشفيات المعروفة المستشفى العضدي ببغداد، بناه عضد الدولة بن بويه عام ٣٧١هـ، والمستشفى النوري الكبير بدمشق وأنشأه السلطان الملك العادل نور الدين سنة ٥٤٩هـ والمستشفى المنصوري الكبير المعروف بمارستان قلاؤون، وكان داراً لبعض الأمراء فحولها الملك سيف الدين قلاوون إلى مستشفى عام ٦٨٣ هـ، وأوقف عليه ما يغل عليه ألف درهم في كل سنة، وألحق به مسجداً ومدرسة ومكتبة للأيتام، و مستشفى مراكش، أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب.

أما نظام الدخول إلى المستشفيات فقد كان مجاناً

للجميع، لا فرق بين غني وفقير، وبعيد وقريب، ونابه وخامل، يُفحص المرضى أولاً بالقاعة الخارجية، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه، ويدخل إلى الحمام، وتخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطي ثياباً خاصة للمستشفى، ويدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى ويخصص له سرير مفروش بأثاث جيد، ثم يعطي الدواء الذي يعينه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له، وكان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج، وعلامة الشفاء أن يأكل المريض رغيفاً كاملاً ودجاجة كاملة في الوقعة الواحدة، فإذا أصبح في دور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أعطي بذلة من الثياب جديدة، ومبلغاً من المال يكفيه إلى أن يصبح قادراً على العمل، وكانت غرف المستشفى نظيفة تجري فيها المياه، وقاعاته مفروشة بأحسن الأثاث، ولكل مستشفى مفتشون على النظافة، ومراقبون للقيود المالية، وكثيراً ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم[1].

---

[1] من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعي ص: ٢٢٥-٢٢٦

مصادر الكتاب

١- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب/ محمود شكري الألوسي البغدادي
٢- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب/ أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري
٣- فتوح البلدان/ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري
٤- المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن/ حسن عبد القادر
٥- الوزراء والكتاب /أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشاري
٦- الفصل في الملل والأهواء والنحل/ أبو محمد علي بن أحمد(ابن حزم)
٧- الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص/د. حسن إبراهيم حسن
٨- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي/ /د. حسن إبراهيم حسن
٩- تاريخ الأمم الإسلامية/ الشيخ محمد الخضري بك
١٠- مقدمة ابن خلدون/ابن خلدون
١١- الفن الإسلامي في مصر/الدكتور زكي محمد حسن
١٢- فنون الإسلام/ الدكتور زكي محمد حسن
١٣- الإسلام والحضارة العربية /محمد كرد علي
١٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب /شهاب الدين أحمد بن محمد المقري
١٥- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار/ تقي الدين أحمد ابن علي المقريزي

١٦- تاريخ حكماء الإسلام/ ظهير الدين البيهقي
١٧-وفيات الأعيان/ ابن خلكان
١٨- الفهرست/ ابن النديم
١٩- نهاية الأرب في فنون الأدب /النويري
٢٠- العلوم عند العرب/ قدري حافظ طرقان
٢١-نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية/زكي محمد حسن، عبدالوهاب عزام
٢٢- فجر الإسلام/ الدكتور أحمد أمين
٢٣- ضحى الإسلام/ الدكتور أحمد أمين
٢٤- الثقافة الإسلامية في الهند/العلامة الشريف عبد الحي الحسني
٢٥- الهند في العهد الإسلامي/ العلامة الشريف عبد الحي الحسني
٢٦- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام/العلامة الشريف عبد الحي الحسني
٢٧- الموجز في الحضارة العربية /أنور الرفاعي، شاكر مصطفى، عبد الحميد وركل
٢٨- من روائع حضارتنا/ الدكتور مصطفى السباعي
٢٩- حضارة العرب/غوستاف لوبون/ترجمة: عادل زعيتر
٣٠- العقد الفريد/ابن عبد ربه
٣١- العمدة/ابن رشيق
٣٢- لسان العرب/ابن منظور
٣٣- تاريخ التمدن الإسلامي/ جرجي زيدان
٣٤- الملل والنحل/ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني

٣٥- معجم البلدان/ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي
٣٦- تاريخ اليعقوبي/ أحمد بن أبي يعقوب
٣٧- تاريخ بغداد/ الحافظ أبو بكر أحمد بن علي البغدادي
٣٨- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي
٣٩- كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر/أبو الحسن المسعودي
٤٠- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية/أحمد شلبي
٤١- الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية/ الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
٤٢- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟/الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

فهرس الكتاب

١. كلمة الناشر ٣
٢. كلمة بين يدي الكتاب ٦
٣. المقدمة ١١
٤. تقديم الكتاب ١٥

الفصل الأول

٥. الثقافة ٢٢
٦. الثقافة والدين ٢٤
٧. الثقافة والحضارة ٢٥
٨. الثقافة الإسلامية ٢٥
٩. العقلية العربية ٢٦
١٠. تأثير الثقافات الأجنبية ٣٠
١١. خلاصة البحث ٣٣
١٢. خصائص الثقافة الإسلامية ٣٤

الفصل الثاني

١٣. قيام الدولة الإسلامية والمراكز الثقافية ٣٦
١٤. بنو بويه ٣٩
١٥. الدولة الفاطمية ٤٠
١٦. الحمدانيون ٤٠

١٧. الغزنويون ٤٠
١٨. السلاجقة ٤١
١٩. الزنكي ٤١
٢٠. الأيوبيون ٤٢
٢١. سقوط الدولة العباسية ببغداد ٤٢
٢٢. المماليك ٤٤
٢٣. العثمانيون ٤٤
٢٤. الحكم الإسلامي في الأندلس ٤٥

الفصل الثالث

٢٥. الحكم الإسلامي في الهند ٤٨
٢٦. أبناء الهند النوابغ في الفضائل المختلفة ٥٢

الفصل الرابع

٢٧. الحركة العلمية ٦٩
٢٨. التفسير ٧٣
٢٩. علم الحديث ٧٥
٣٠. علم الفقه ٧٧
٣١. العلوم الأدبية ٧٧
٣٢. علم اللغة ٧٨
٣٣. البيان ٧٩
٣٤. النحو ٧٩
٣٥. التاريخ ٨٠

٣٦. الجغرافية ٨٢
٣٧. الفن والتصوير ٨٣
٣٨. الفلسفة والكلام ٨٤
٣٩. علم الكلام ٨٦
٤٠. تسمية علم الكلام ٨٧
٤١. أول من دوّن علم الكلام ٨٧
٤٢. الفرق ٨٨
٤٣. المعتزلة ٨٩
٤٤. الأشاعرة والردّ على المعتزلة والفلاسفة ٩٠
٤٥. الباطنية ٩١
٤٦. إخوان الصفا ٩٢
٤٧. علم التصوف ٩٢
٤٨. نقل كتب الفلاسفة إلى اللغة العربية ٩٤
٤٩. حنين بن إسحاق رائد الترجمة والنقل ٩٦
٥٠. الفلاسفة العرب ٩٧
٥١. الكندي ٩٧
٥٢. الرازي ٩٨
٥٣. الفارابي ٩٨
٥٤. أبو علي سينا ٩٩
٥٥. البيروني ١٠٠
٥٦. ابن باجة ١٠٠

٥٧. ابن طفيل ١٠٠
٥٨. ابن الهيثم ١٠١
٥٩. مسكويه ١٠١
٦٠. الغزالي ١٠١
٦١. ابن رشد ١٠٢
٦٢. ابن خلدون ١٠٣

الفصل الخامس

٦٣. الفن الإسلامي ١٠٥
٦٤. المدن ١٠٦
٦٥. البصرة ١٠٧
٦٦. الكوفة ١٠٨
٦٧. الفسطاط ١٠٨
٦٨. الواسط ١٠٩
٦٩. دمشق ١٠٩
٧٠. بغداد ١١٠
٧١. سامرا ١١٣
٧٢. القاهرة ١١٤
٧٣. فاس ١١٤
٧٤. قرطبة ١١٥
٧٥. الزهراء ١١٧
٧٦. القيروان ١٢١
٧٧. مدينة القطائع ١٢٢

٧٨. مدينتا المهدية والمنصورية ١٢٢
٧٩. مراكش ١٢٣
٨٠. الرباط ١٢٣

الفصل السادس

٨١. الجوامع ١٢٤
٨٢. قبة الصخرة ١٢٤
٨٣. جامع الزيتونة ١٢٤
٨٤. جامع قرطبة ١٢٥
٨٥. جامع ابن طولون ١٢٦
٨٦. الجامع الأزهر ١٢٦
٨٧. الجامع الأموي في دمشق ١٢٧
٨٨. جامع القرويين ١٢٨
٨٩. جامع القيروان ١٢٨
٩٠. جامع الكتبية ١٢٩
٩١. المدارس والمعاهد العلمية ١٣١
٩٢. المكتبات الإسلامية ١٣٥
٩٣. المستشفيات ١٤١
٩٤. مصادر الكتاب ١٤٤
٩٥. فهرس الكتاب ١٤٧